في رعاية أبوالحسن الندوي

المجلد ٦١

شعارنا الوحيد إلى الإسلام من جديد

البعث الإسلامي

مجلة إسلامية شهرية جامعة

رمضان ١٤٣٦هـ — يونيو ٢٠١٥م

العدد الثاني- المجلد الحادي والستون — June 2015

ندوة العلماء

تأسست ندوة العلماء ودارالعلوم التابعة لها على مبدأ التوسط والاعتدال، والجمع بين القديم الصالح والجديد النافع،وبين الدين الخالد الذي لا يتغير، والعلم الذي يتغير ويتطور ويتقدم ، وبين طوائف أهل السنة التي لا تختلف في العقيدة والمنصوص، وقامت من أول يومها على الإيمان بأن العلوم الإسلامية علوم حية نامية ، وأن منهاج الدراسة خاضع لناموس التغير والتجدد ، فيجب أن يتناوله الإصلاح والتجديد في كل عصر ومصر، وأن يزاد فيه، ويُحذف منه بحسب تطورات العصر، وحاجات المسلمين وأحوالهم.

الإمام العلامة الشيخ السيد أبوالحسن علي الحسني الندوي (رحمه الله)

أنشأها

فقيد الدعوة الإسلامية

الأستاذ محمد الحسني رحمه الله تعالى

في عام:١٣٧٥هـ -١٩٥٥م

رئاسة التحرير

سعيد الأعظمي الندوي

واضح رشيد الندوي

مساعدا التحرير:

محمد فرمان الندوي

محمد عبد الله الندوي

المراسلات

البعث الإسلامي

مؤسسة الصحافة والنشر

ص.ب.٩٣ لكناؤ (الهند) الفاكس: ٢٧٤١٢٢١-٢٧٤١٢٣١ — ٠٥٢٢

AL-BAAS-EL-ISLAMI

MAJLIS - E - SAHAFAT -WA- NASHRIYAT P. O. BOX: 93 Taigor Marg, Lucknow. Pin:226007 U. P. (India) Fax: 0522-2741221,2741231

Mob: 9889336348 E-mail:nadwa@sancharnet.in

محتويات العدد

العدد الثاني- المجلد الحادي والستون -رمضان ١٤٣٦هـ- يونيو ٢٠١٥م

❖الافتتاحية :

يا لفشل الغرب في سد موجة الإسلام ! سعيد الأعظمي الندوي ٣

❖التوجيه الإسلامي :

العاقبة للعرب والمسلمين (٢) سماحة العلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله ٧

شرح قصيدة الكواكب الدرية في مدح خير البرية الدكتور غريب جمعة ١٨

أبعادٌ في دعوة الإيمان والقرآن الدكتور إحسان قاسم الصالحي ٢٧

الربانية أهميتها وحاجتها في المجتمع

وأبرز العلماء الربانيين عبر القرون الأخ عبد الوهاب الشكوري الندوي ٣٠

❖الدعوة الإسلامية :

الصوم صبر و الصبر صوم الشيخ الطاهر بدوي الجزائري ٣٨

عناية الإسلام بالأخلاقية الفاضلة الدكتور ك . ت . شكيب ٤٥

❖ دراسات وأبحاث :

وسط جزيرة العرب العلامة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي ٥٧

قيم متغيرة في الأدب العربي بين القديم والحديث الباحث محمد علي أختر الندوي ٦٣

❖من تاريخ الحضارة الإسلامية:

الترجمة العربية في عهد الرسول والخلافة الراشدة (٢) الدكتور ثمامة فيصل بن أبي المكارم ٧٤

❖صور و أوضاع :

الجهالة أو الغباوة ؟! الأستاذ السيدمحمد واضح رشيد الحسني الندوي ٧٨

❖إلى الإسلام من جديد :

بالإسلام أعزنا الله ! محمد فرمان الندوي ٩١

❖أخبار اجتماعية و ثقافية :

١)هيئة قانون الأحوال الشخصية للمسلمين (لعموم الهند) قلم التحرير ٩٣

٢)ندوة علمية لرابطة الأدب الإسلامي العالمية في ولاية بهار (الهند) قلم التحرير ٩٤

٣)ندوة وطنية حول "المصادر العربية لتاريخ الهند" بجامعة دلهي الأخ غياث الإسلام الصديقي الندوي ٩٦

❖إلى رحمة الله تعالى :

الدكتور عدنان علي رضا النحوي في ذمة الله تعالى قلم التحرير ١٠٠

الافتتاحية

بسم الله الرحمن الرحيم

يا لفشل الغرب في سد موجة الإسلام !

إن كتاب الله تعالى القرآن الكريم إنما يحتوي على قصص وأنباء المجتمعات البشرية الماضية التي تحمل دروساً وعبراً للتاريخ الإنساني على طول مداه ، ومن بينها قصة " حمالة الحطب " التي كانت نتيجة تلك العداوة الشديدة البغيضة والشحناء التي ملأت نفس أبي لهب ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يجهل التاريخ ما حدث إبان الدعوة الإسلامية بعد ما نزلت آية تخاطب الرسول عليه الصلاة والسلام وتأمره بالصدع بالأمر السماوي وبإنذار عشيرته الأقربين وهي كما جاءت في سورة الشعراء : (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ) وفي سورة الحجر : (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) وامتثالاً لهذا الأمر السماوي صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم جبل مكة " الصفا " ونادى: يا صباحاه ، فاجتمعت إليه قريش ، فقال : أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني ؟ قالوا : نعم ، قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا ؟ تباً لك ، وفي رواية : فقام ينفض يديه وهو يقول : تباً لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ (صحيح البخاري) .

أما حمالة الحطب ، فهي امرأة أبي لهب واسمها أروى بنت حرب بن أمية ، وهي أخت أبي سفيان ، وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده ، فلهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم ، وحمالة الحطب نصبها على الذم بحذف فعل : أذم حمالة الحطب، وقد أصبحت مثالاً لكل امرأة تعلن الكفر وتبغض الإسلام وتعادي رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل جهر وإعلان ، ولعل تاريخ الإنسان شهد مثل هذه المرأة في كل فترة من التاريخ الإسلامي إلى اليوم ممن أعلنت حرباً على الإسلام ونبي الإسلام عليه الصلاة والسلام سواء بالافتراءات والاتهامات ، بالقول أو القلم أو بمجاهرة الفحشاء والرذائل الخلقية ، من غير خوف أو حشمة وبكل وقاحة ، ولنا في المرأة البنغالية اللاجئة اليوم في الهند برعاية حكومية خاصة في مكان مجهول ، لكي لا يصيبها مكروه أو استنكار من المسلمين ، واسمها " تسليمه نسرين " التي تجاوزت كل الأرقام من الشتم والبغض والعداوة لشخصية رسولنا العظيم محمد صلى الله عليه وسلم ، وانتهاك حرمته بكتاباتها وكتبها ضد الإسلام ونبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم .

وإذا فتشنا اليوم عن أمثالها من جنس الأنثى ، ممن تعادي رسول

الرحمة الهادي صلى الله عليه وسلم ، وتبذل طاقاتها في نشر مواد سامّة خبيثة وتأليف كتب حاقدة على الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام الذين وصفهم الله تعالى في كتابه بأحسن ما يوصف به احد من الناس ، (مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ) ، لو فتشنا لوجدنا أمثال هذا الجنس يفوق العد والإحصاء ، نتيجة لمدارس نسوية يهودية خاصة بتعليم عنصر الظلم والاضطهاد الذي يتهم به اليهود الإسلام ويقولون إن الإسلام يأمر أتباعه بأن يأخذوا المرأة عبدة ذليلة خاسرة بعيدة عن كل ما يتميز به الرجل ، ويملأ قلبها بالنفور والكراهية والعداء والبغض ، من خلال الاتهامات الكاذبة التي تباح لهذا الجنس من طريق التفريق الذي يقوم به الإسلام بين الجنسين ، وحرمانه المرأة من جميع ما يسويها مع الرجل ، وبحط مكانتها إلى أرذل من الحيوان ... بمثل هذه الأكاذيب والأباطيل تبرر المرأة المعادية استخدام كل طاقة من القلم والقلب ، والبيان والدعاية في تعزيز كل ما ينال من شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبفتح الطريق نحو معاكسة منهج الإسلام للحياة ومحاربة الأسوة الحسنة التي تميزت بها حياة النبي صلى الله عليه وسلم .

نشرت الجرائد العالمية والمحلية نبأ إقامة معرض في تكساس في اليوم الثالث من شهر مايو الجاري لعام ٢٠١٥ م ، وذلك لعقد مسابقة مرذولة بين الكاريكاتوريين الأمريكيين لصناعة كاريكاتورات مهينة خاسرة ذليلة لخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، والعياذ بالله ، وقد أعلن عن الجائزة الأولى للمبرز الأول في المسابقة عشرة آلاف دولار أمريكي .

وهل تعرفون أيها القراء الكرام من هو الذي تولى الاهتمام بهذه المسابقة الخسيسة ، إنما هي امرأة فاحشة ذات خبث وعناد للإسلام ونبيِّه صلى الله عليه وسلم تُدعى باسم " باميلا غالر " وليست هي المرة الأولى التي قامت فيها هذه المرأة الخبيثة بعقد مثل هذه المسابقة ولكنها قامت في شهر سبتمبر لعام ٢٠١٢ م بعقد مؤتمر بعنوان : (أوقفوا الإسلامية في أمريكا) فهي معروفة في شدة عداوتها للإسلام في جميع أنحاء أمريكا ، ولها نشاط زائد في معاداة الإسلام وأهله في كل مكان ، وهي التي أنشأت مجموعة من أعداء الإسلام باسم (الدفاع الأساسي عن الحرية الأمريكية) – American Freedom Defence Initiative - وكانت هذه المجموعة في غاية من النشاط ضد الإسلام ، فنصبت لوحات كبيرة ذات نفور وكراهية

ضد الإسلام في مدن متعددة في امريكا بإيعاز من " باميلا غالر " ويتلخص بعض عناوين هذه اللوحات واللافتات كما يلي : " إذا كانت مقاومة بين المثقفين والإرهابيين فانتصروا للمثقفين " ، " أحبوا إسرائيل وأكرموها بالولاء لها " ، "واهزموا الجهاديين " ، وما أشبه ذلك .

وهم (الأماركة) يستترون وراء لافتة حرية إبداء الرأي ، في كل ما له علاقة بهدم الإسلام وتشويه التاريخ الإسلامي واتهام المسلمين بالإرهاب ، وإذا كانت صورة مصغرة للدعوة إلى الإسلام أو تفضيله على جميع الديانات والفلسفات الحضارية المادية يعتبرون ذلك العمل من أشد الجرائم ويستحق أهل ذلك العمل أن ينفوا من البلاد أو يعاقبوا بأشد عقاب، كمثل الذي يمدح أدولف هتلر السياسي الألماني النازي ، ويكذب محرقة " هولوكاست " المزعوم الذي أقامه النازيون لتعذيب اليهود ، فإنه يعاقب بأشد ما يمكن ، أما إذا كان هناك من يشتم رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ويتهمه بما شاء من افتراءات ساقطة ، ويكذب كتاب الله تعالى الذي أنزل عليه صلى الله عليه وسلم قرآناً عربياً ويتناوله بالتحريق ، لم يسترع ذلك أي انتباه من أي جهة أو شخص .

والسبب معلوم لدى كل عارف ومطلع على التاريخ العالمي ان اليهود – رغم قلة عددهم الإحصائي – هم الواقفون وراء كل معاداة ضد الإسلام ، ومساندة كل تركيز على عقد مسابقات لصناعة الرسوم الكاريكاتورية الساخرة للرسول صلى الله عليه وسلم ، وما حدث أخيراً في تكساس في اليوم الثالث من شهر مايو ٢٠١٥ م لم يعد مجهولاً في معرض أقيم لهذا الغرض ، وذلك لعقد مسابقة مرذولة ذليلة تولتها " باميلا غالر " (حمالة الحطب ، للتاريخ الإنساني الحديث) وذلك لإشفاء غليل العداء والنفور ضد شخصية رسولنا العظيم صلى الله عليه وسلم ، وليس لهذه الجريمة البشعة السافلة عقوبة إلا نازلة تنزل من السماء أو أشد عقاب من القضاء الإسلامي، وقد ألفت كتب ورسائل في هذا الموضوع ألفها علماء الإسلام ، ومن اعظم وأهم ما ألف في الموضوع كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى (الصارم المسلول على شاتم الرسول) يقول في باب : (من سعى في دين الله بالإفساد استحق القتل) .

" أما انتهاك عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه مناف لدين الله بالكلية ، فإن العرض متى انتهك سقط الاحترام والتعظيم ، فسقط ما جاء به من الرسالة ، فبطل الدين ، فقيام المدحة والثناء عليه والتعظيم

والتوقير له قيام الدين كله ، وسقوط ذلك سقوط الدين كله ، وإذا كان كذلك وجب علينا أن ننتصر له ممن انتهك عرضه ، والانتصار له بالقتل ، لأن انتهاك عرضه انتهاك لدين الله " .

ولكن الغرب بكامله ملح غاية الإلحاح على انتهاك حرمة الدين ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وهو يعاني من القلق الشديد والاضطراب النفسي اللذين يعيشهما من خلال موجة الأسلمة وتزايد عدد المسلمين في الغرب نفسه ، إن هذا الغرب يريد أن يبني على موجة الاهتداء إلى الإسلام سداً منيعاً ، ويمسك سيل الإسلام بسيل انتهاك حرمة الإسلام وحرمة نبيه العظيم محمد صلى الله عليه وسلم ، وسوف لا ينجح الغرب في هدفه المشئوم، ويبوء بالفشل الذريع ، كما هو المشاهد اليوم على جميع المستويات، يقول الله تعالى : (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابَا) .

ولا يركز الغرب المعاصر اليوم على نقطة الحرية في إبداء الرأي إلا لكي يتخذها ذريعة للهجوم على شريعة الله تعالى والنيل من شخصية الرسول عليه ألف ألف تحية وسلام ، وهو بذلك يفتح الباب على مصراعيه للسب والشتم وإعلان أن الإسلام لم يعد دين الإنسان ، وأصبح بائداً لا يغني عن الحياة والإنسان والكون شيئاً في العالم المعاصر الحديث ، الذي يتميز بقفزات واسعة في جميع مجالات العلم والتحقيق والتقنية ، ويبدع أسساً حديثة للعالم البشري الذي يتطلع إلى المسايرة مع الزمان ، وإلا فليس له إلا الخسران .

وكتاب الله تعالى يفند هذه النظرة الخاطئة ويعطي لكل إنسان قاعدة ثابتة للحرية والسعادة التي تشمل الحياة من جميع النواحي مهما اختلف الزمان والمكان :

" إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ " .

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

سعيد الأعظمي الندوي

١٤٣٦/٧/١٧ هـ

٢٠١٥/٥/٧ م

التوجيه الإسلامي

العاقبة للعرب والمسلمين

(الحلقة الثانية الأخيرة)

بقلم : سماحة العلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله

وليست لليهود ولم تكن في أي دور من أدوار حياتهم أي رسالة عالمية ، وطبيعة الرسالة العالمية لا تتفق مع تقديس العنصر والدم ، والغلو في تعظيم سلالة واحدة ، واعتقاد كل نزاهة وجدارة وصلاحية للتقدم الروحي ، والسمو النفسي ، والقرب من الله تعالى في نسل واحد وأرومة واحدة ، وعدم الاقتناع بعقيدة المساواة البشرية ، ووحدة الأصل والجنس في بني آدم ، وتكافئهم في فرص الرقي والتقدم ، والطهارة والنزاهة ، وبلوغ أعلى درجات الإيمان والإحسان ، والرحمة والرضوان .

فطبيعة تقديس العنصر والدم ، وحصر النجابة والنبوغ ، والعبقرية والعظمة ، والاختصاص بخالق هذا الكون ، تعارض كل المعارضة العطف على النسل الإنساني ، والحماسة في نقل أفضل ما عندها من رسالة وسعادة إلى باقي البشر وسائر بني آدم ، وإشراكهم فيما عندها من علم ثابت ، وعمل صالح ، وأخلاق كريمة .

بل إن هذه الطبيعة تجنح بطبيعة الحال إلى تضييق دائرة الهداية والدعوة ، وتحديدها في عنصر واحد ، وفي سلالة واحدة ، لذلك كان من الطبيعي أن الديانة اليهودية لم تكن في زمن من الأزمان دعوة عامة للخلق ، ولم يكلف اليهود – في ضوء من نصوص كتبهم المقدسة – بتبليغ الرسالة إلى الأمم جميعاً [1] ، بل وردت نصوص تمنع من ذلك ، وتحصر نشاطهم الدعوي في نطاقهم العنصري المحدود .

[1] تقول السيدة الفاضلة المهتدية مريم جميلة (Margaret Marcus) اليهودية سابقاً في كتابها (الإسلام إزاء أهل الكتاب ماضياً وحاضراً) باللغة الإنكليزية : " إن اليهود ليسوا فقط لا يبلغون دينهم إلى غيرهم عملياً ، بل إنهم لا يرحبون بالدخول في ديانتهم ، ولا أعرف إلا مثالين في تاريخهم الطويل حين دخل غير اليهود في اليهودية في عدد كبير ، كان ذلك مرة في اليمن ، في زمن سبق البعثة المحمدية ببضعة قرون، ومرة ثانية حين اعتنق عدد من غير اليهود الديانة اليهودية في مملكة الخزر التترية –

وكان من الطبيعي والمعقول جداً أن يميزوا دائماً بين بني إسرائيل وبين الشعوب والقبائل الأخرى ، وأن يضعوا للخير والشر ، والبر والإثم ، مقاييس مختلفة ، تختلف باختلاف السلالات والشعوب ، وأن لا يتحرّجوا من أكبر إجرام أو عدوان مع شعب آخر ، وذلك ما أخبر به القرآن عنهم فقال : (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ) (آل عمران : ٧٥) .

ومن الطبيعي والمعقول جداً أن تتعرض جميع الشعوب والسلالات التي يحكمها اليهود لكل اضطهاد وعسف وبخس نصيب وتطفيف كيل، لأنهم لا ينظرون إليها كأسرة إنسانية زميلة ، أو سلالة بشرية شريفة ، وإنما هي قطيع من الغنم ، أو مجموعة من عجماوات أو جمادات، خلقها الخالق لتكون آلة صمّاء في يد أبنائه المدللين [1] .

إذاً فالفطرة السليمة التي أودعها الله في غالب البشر ، وما تحدثت الأديان والشرائع والكتب المنزلة عن عدل الله ورحمته وحكمته وإرادته ، من صنع هذا الكون – الفسيح البديع المنظم المنسق – وخلقه للجيل البشري ، واستخلافه وتكريمه ، وما أودع في الأشياء من طبائع ، وما وضع لنهضة الأمم وانحطاطها ، وقيام الحكومات وسقوطها ، وازدهار الديانات وذبولها من سنن وقوانين ، وما تحقق عند جميع الأديان، والفطر السليمة ، والعقول المستقيمة ، من أنه ليس رب سلالة ونسل ، ورب أسرة وبيت ، ورب بيت وإقليم ، بل هو إله الجميع ، ورب العالمين ، ورب المشارق والمغارب .

وما ثبت في التاريخ الإنساني من أن الشعوب والأمم إنما تحيى بالرسالات التي تحتضنها ، والغايات التي تدعو إليها ، والفضائل التي تكافح في سبيلها ، وما تحمل من إفادة ونافعية ، وغناء للجميع ، وما نبّه عليه القرآن الحكيم بقوله : (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ) (الرعد : ١٧) .

– الأصل ، التي عاشت مدة قصيرة في روسية." Islam versus ahl al kitab past and present : 22 23

١ وهي نفس النظرة التي ينظر بها البراهمة والفاتحون من الآريين في الهند إلى سكان هذه البلاد القدماء ، وعليه تأسس نظام الطبقات في الديانة البرهمية وفي المجتمع الهندي ، ولا يزال هو النظام المتبع رغم جهود المصلحين الثائرين منهم .

إن كل ذلك يحتم أن اليهود الذين يتحدّون هذه الحقائق ، وهذه الطبائع ، وهذه السنن والقوانين ، والغايات الكريمة التي خلق الله لها هذا الكون ، وأوجد لها هذا الجيل البشري ، وما يحبه من الخير والصلاح ، ومن العمران والبقاء ، لا يمتعون بفترة طويلة من السيادة والسيطرة والغلبة والقوة ، ولا يمكنون من تحقيق جميع آمالهم وأحلامهم، ومشاريعهم ومخططاتهم الهادمة المدمرة ، ومطامع الأنانيّة السلبية ، ولو أيدتهم ألف حكومة ، وكانت من ورائهم القوى الكبرى كلها في العالم ، ولو توافرت عندهم كل الوسائل الجهنميّة التي اكتشفها المكتشفون في هذا العصر ، والتي برع فيها اليهود براعة ممتازة [1] .

وسينتصر أهل الحق وحملة الرسالة العالمية الخالدة ، التي تعطف على الإنسانية كلها ، وتساوي بين الشعوب والأمم ، وتنتصر للحق أينما كان ، وتحارب الظلم أينما وجد ، يعيشون للإنسانية و بالإنسانية ، ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً .

وقد كان للدهاء والمكر والخديعة والذكاء الذي لا يقوم على احترام الإنسانية ، ولا يقف عند الحدود العقلية والخلقية ، والذي يتجه دائماً إلى الأنانية السلبية ، انتصارات بهرت العقول والألباب ، وغشت على العيون والأبصار ، وشكّكت في التاريخ البشري ، وكادت تفقد الثقة بقوة الحق وحسن العاقبة للصادقين المتقين .

وكانت لهذه القوة التخريبية الماكرة جولات وصولات في التاريخ،

---

[1] أخبرت الأحاديث النبوية التي كادت تبلغ حد التواتر بأن اليهود يبلغون في زمن من الأزمان الذروة في القوة والسيطرة في فلسطين ، وينهض فيهم الدجال الأكبر ، الذي يتزعم هذه القوة ، ويتصرف في الأشياء ، وأنهم سيجتمعون في مكان واحد ، ثم يتسلط عليهم المسلمون ، ويضعون فيهم السيف ، ويعاديهم كل شيئ حتى ينم عنهم الحجر ، وبقي علماء السنة أكثر من ثلاثة عشر قرناً يتدارسون هذه الأحاديث في (كتاب الفتن والملاحم) وأبواب (أشراط الساعة) في كتب الحديث ، وهي من أبعد الأشياء في الخيال عن عالم الأسباب والواقع ، فاليهود – طوال هذه المدة – أذلاء مشتتون في الآفاق ، حتى بدأت هذه النبوءة تتحقق في منتصف هذا القرن المسيحي الحاضر ، فنشأت فكرة وطن اليهود ، وقامت إسرائيل ، وحدث ما حدث ، وستحقق أواخر هذه النبوءة كما تحققت أوائلها ، وهي من المعجزات النبوية التي تجلى بعضها وتبينت كالصبح ، وسيتجلى الباقي ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

حتى تحركت الجبال الراسيات ، واضطرب رجال الفلسفات وعلماء الديانات ، وقد صور القرآن بإعجاز هذه الساعات الدقيقة العصيبة ، وما ينتاب العقول والقلوب في ذلك الوقت من حيرة واضطراب ، وشك وارتياب، ولا تصوير أبلغ من تصوير القرآن : (حَتَّىٰ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ) (يوسف : ١١٠) ، وقوله : (إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا . هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيداً) (الأحزاب : ١٠ – ١١) .

وقد عالج القرآن هذه النفسية الإنسانية التي تخضع للقلبة والقوة مهما كانت عارضة موقتة ، ومهما كانت سخفية هازلة ، فقال : (لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَادِ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ) (آل عمران : ١٩٦ – ١٩٧) ، وقال : (مَا يُجَادِلُ فِىٓ ءَايَاتِ ٱللَّهِ إِلاَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَادِ) (غافر : ٤) .

وعالج كذلك النفسية الضعيفة التي تستلم دائماً لدهاء دقيق ، ومكر محكم ، أو مؤامرة ناجحة ، فذكر مراراً وتكراراً أن مصيرها إلى الانهيار والافتضاح ، والخيبة والإخفاق ، وأنه كنسج العنكبوت : (وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ) (العنكبوت : ٤١) .

وقرر أن الخير لا ينتج من الشر ، وما كان أساسه ضعيفاً متداعياً للسقوط ، ولم يكن له أصل ثابت ولا جذور عميقة – في الأرض الكريمة أو الفطرة السليمة – يكون البناء الذي يقوم عليه مستعداً للانهيار في كل لحظة ، فقال : (أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ) (التوبة : ١٠٩) .

وقال : (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ) (إبراهيم : ٢٦) .

وقال على لسان نبي الله موسى عليه السلام مخاطباً لجماعة السحرة ، قال : (مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ) (يونس : ٨١) .

وقال يتحدث عن المكر والدهاء في مختلف الأزمنة والأمكنة كقانون عام خالد : (وَلاَ يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّىءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ ٱلأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَحْوِيلاً) (فاطر: ٤٣) ، وقال : (وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَـٰئِكَ هُوَ يَبُورُ) (فاطر : ١٠) .

وأعلن حقيقة عالمية لا تختلف باختلاف الزمان والمكان ، والشعوب والأوطان ، ومظاهر الفوز والخسران ، والسعادة والحرمان ، فقال – غير مبال بما يعتقده البشر من نجاح الحكام والملوك ، والطامحين المغامرين في عصرهم – : (فَاصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) (هود: ٤٩) ، وقال : (وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَاطِلُ إِنَّ ٱلْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً) (الإسراء : ٨١) .

وبالعكس من ذلك فالعرب رغم جميع العلل ومواضع الضعف والطوارئ ، التي تحدثنا عنها في مقالاتنا ومحاضراتنا المنشورة باسم "المسلمون وقضية فلسطين " في صراحة ليست فوقها صراحة ، ما زالوا ولا يزالون أصحاب دعوة إنسانية عامة ، ورسالة عالمية آفاقية . والدين الإسلامي الذي أكرمهم الله بالسبق فيه والدعوة إليه ، حق مشاع وثروة مشتركة لجميع الأمم والشعوب ، والعناصر والأجناس ، والأسر والبيوتات ، والبلاد والأوطان ، ليس فيه احتكار مثل احتكار (بني لاوي) من اليهود أو (البراهمة) من الهنود ، ولا يتميز فيه شعب عن شعب، ولا نسل عن نسل ، وليس الاعتماد فيه على العرق والدم ، بل الاعتماد فيه على الحرص والشوق ، وحسن التلقي ، وزيادة التقدير ، والتفوق في الجهاد والاجتهاد ، وقد روى الإمام أحمد ابن حنبل بسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لو كان العلم بالثريا لتناوله أناس من أبناء فارس) [1] .

وقد دان العرب في جميع عصورهم لكل من برز في العلوم الدينية وتفوق فيها ، وأقروا لهم بالإمامة والزعامة فيها ، وخلعوا عليهم من

---

[1] مسند الإمام أحمد : ٢/٢٩٦ [ورواه مسلم ، رقم (٢٥٤٦) بلفظ : (لو كان الدين عند الثريا لذهب به رجل من فارس – أو قال – من أبناء فارس حتى يتناوله)] .

النعوت والألقاب ما لم يخلعوها على كثير ممن برع في هذه العلوم من العرب ، فلقبوا الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري ، صاحب (الجامع الصحيح) (م ٢٥٦) بأمير المؤمنين في الحديث ، وقالوا عن كتابه : إنه أصح كتاب بعد كتاب الله ، ولقبوا الإمام أباالمعالي عبدالملك الجويني النيسابوري [١] (م ٤٧٨) بإمام الحرمين ، ولقبوا الإمام أبا حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (م ٥٠٥) بحجة الإسلام .

وقد كان الموالي وأبناء العجم هم زعماء العلم ومراجع المسلمين في جميع عواصم المملكة الإسلامية الواسعة في آخر القرن الأول الهجري ، قد انتهت إليهم رئاسة العلم والفتيا ، والفقه والحديث ، وهي قصة معروفة في جميع كتب الطبقات والسير والتراجم وتاريخ الحضارة الإسلامية .

واطرد ذلك في العصور الإسلامية الذهبية التي ساد فيها العرب ، حتى قال نابغة العرب العلامة عبدالرحمن بن خلدون المغربي (م ٨٠٨ هـ): " من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم ، لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية إلا في القليل النادر ، مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربي ... فكان صاحب صناعة النحو سيبويه [٢] ، والفارسي [٣] من بعده ، والزجّاج [٤] من بعدهما ، وكلهم عجم في أنسابهم، وكذا حملة الحديث ، وعلماء أصول الفقه ، وحملة علم الكلام ،

---

١ شيخ الشافعية في بلاد ما وراء النهر ، صاحب المصنفات الفقهية العظيمة ، أشهر كتبه (نهاية المطلب في معرفة المذهب) في الفقه ، و (البرهان في أصول الفقه) ، و (الشامل في علم الكلام) ، وهو شيخ الإمام الغزالي .

٢ هو إمام النحاة عمرو بن عثمان بن قنبر أبو بشر الحارثي مولاهم ، ولد سنة (١٤٨ هـ) ، وهو صاحب (الكتاب) في العربية الذي لا يلحق شأوه ، وشرحه أئمة النحاة بعده ، فانغمروا في لجج بحره ، واستخرجوا دُرره ولم يبلغوا إلى قعره ، توفي سنة (١٨٠ هـ) وله اثنتان وثلاثون سنة .

٣ الحسن بن أحمد ، أبوه فارسي ، وأمه سدوسية من سدوس شيبان ، من أئمة العربية ، وصاحب التصانيف البديعة ، توفي في بغداد سنة ٣٧٧ هـ ، وقد جاوز التسعين .

٤ هو إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق من علماء العربية وتلميذ المبرد ، ولد سنة ٢٤١ هـ ، وكان فاضلا دينا حسن الاعتقاد ، له تصانيف معتبرة أشهرها (معاني القرآن) ، أخذ عنه أبو علي الفارسي النحوي ، والزجاجي . توفي سنة ٣١١ هـ .

وأكثر المفسرين " [1] .

والعرب بفطرتهم التي فطرهم الله عليها من أقرب الأمم والشعوب إلى قبول مبدأ المساواة الإنسانية واحترام النوع البشري ، وأنشطها في تطبيق هذا المبدأ والعمل به ، قد حملوه معهم في فتوحهم الواسعة ، وفي زحفهم المبارك ، الذي فتح للعالم آفاقاً جديدة في العلم والمدنية ، والفضيلة والتقوى ، حتى أحبتهم الشعوب المفتوحة – وقد عرفت في التجربة وبداهة العقل ببعض الفاتحين – وغلا بعض الغلاة الوثنيين من مشركي السند والملتان في شبه القارة الهندية في القرن الأول الإسلامي ، فصنعت لمحمد بن القاسم الثقفي ، الفاتح العربي تماثيل ، أضافتها إلى تماثيلها القديمة حباً وإجلالاً .

وأسلم أهل سمرقند البوذيون على بكرة أبيهم لما رأوا من معاملة الخليفة عمر بن عبد العزيز وعدل المسلمين [2] (بخلاف البلاد التي فتحها غير العرب) ودخلت البلاد المفتوحة قاطبة في الإسلام ، واعتنقت الحضارة الإسلامية ، وتكلمت باللغة العربية ، وفضّلت الفاتحين الأجانب ، وما حملوه معهم من أخلاق وعادات ، وشرائع وقوانين ، ولغات ولهجات ، على ما توارثتها من أحقاب طويلة ، وأجيال متواصلة ، وتكون منها هذا العالم العربي الذي نتحدث عنه ، ولا تزال كلمة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه التي قالها لأحد قادته الكبار [3] ، يتردد صداها في الآذان والقلوب ، وفي صفحات التاريخ : " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً " .

وقد كانوا في جاهليتهم وفي إسلامهم من أبعد الأمم بحكم الفطرة والنشأة والمثل العليا التي كانوا يدينون بها عن طبيعة المؤامرات ، والتكتّم والسرية ، والدسيسة والنفاق ، فكانوا أعداءً جهاراً وعلانيةً ، وكانوا أصدقاءً جهاراً وعلانية ، وكانوا إذا حاربوا حاربوا في الميدان ، وإذا صالحوا صالحوا عن إعلان ، دلّ على ذلك شعرهم ، وأدبهم ،

---

[1] مقدمة ابن خلدون ، المطبعة البهية المصرية ، ص ٤٠١ .
[2] راجع فتوح البلدان للبلاذري .
[3] لأمير مصر عمرو بن العاص رضي الله عنه .

ووصاياهم وحكمهم ، وأمثالهم وأيامهم في الجاهلية والإسلام ، ولم يكن النفاق من طبيعتهم الأصيلة ، ولذلك يكاد المفسرون يتفقون على أنه لا نفاق في مكة ، لأنها بيئة عربية خالصة ، لا تشوبها شوائب اليهودية والعناصر الدخيلة ، وعلى أن جميع الآيات التي جاء فيها ذكر النفاق والمنافقين مدنية [1] ، وقد استدل لذلك بعض المفسرين والأصوليين بقوله تعالى : (وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ) (التوبة : ١٠١) .فلا خطر على العالم وعلى الرقعة التي يحكمها العرب ، وعلى الشعوب والأمم التي يقودونها ، وعلى المدنيات والمؤسسات التي يوجهونها ، وعلى السياسة التي يلعبون فيها الدور الحاسم ، من مؤامرة سرية ، ومن دسائس خفية ، ومن النفاق في الأخلاق ، ومن الإفساد بين الطوائف والطبقات ، ومن خلق المشاكل والأزمات ، لمصلحة قومية أنانية فردية أو جماعية ، إنما هي قيادة واضحة حاسمة ، وسياسة ظاهرها وباطنها سواء ، وحكم يعدل مع القريب والبعيد ، والشرقي والغربي ، والعجمي والعربي .

أما هذه القومية المتطرفة ، والعصبية الجاهلية ، التي ابتليت بها بعض الجماعات العربية ، وتزعمتها بعض القيادات في العهد الخير لأسباب ليس هذا محل شرحها ، فهي طارئة دخيلة ، لا تنسجم مع الطبيعة العربية الإسلامية الأصيلة ، وهي تثور عليها في أول فرصة ، وتعود إلى أصالتها القديمة ، وإلى إيمانها الذي امتزج بلحمها ودمها ، وتغلغل في أحشائها ، بقوله تعالى : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (الحجرات : ١٣) ، ويقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم : " ... الناس بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى) [2] .

وإذا كان الإسلام رسالة الله الأخيرة الخالدة ، التي تكفل الله ببقائها وخلودها ، وإذا كان القرآن هو الكتاب السماوي الأخير الخالد ، الذي تكفل الله ببقائه وحفظه ، ولا بقاء للإسلام ولا المسلمين – كأمة

[1] سبق لكاتب هذه السطور ، مقال في هذا الموضوع نشرته صحيفة (الفتح) الغراء لصاحبها الأستاذ محب الدين الخطيب سنة ١٩٣٢ م أو ١٩٣٣ م . وانظر السيرة النبوية للمؤلف ، فصل ظهور النفاق والمنافقين في المدينة ، ص ٢٠٠ ، ط . دار القلم بدمشق .

[2] رواه الترمذي وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ذات عقيدة وشخصية ، وقانون وشريعة ، ودعوة ورسالة – بغيره ، وكل ذلك مكفول مضمون ، وقد قال الله تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (الحجر : ٩) .

كان بقاء العرب مضموناً مكفولاً كذلك ، فلا بقاء للقرآن بغير اللغة العربية ، ولا بقاء للغة العربية بغير أهلها ، فإن كل ذلك لا يقوم في الفضاء ، وليس من المعقول ولا من اللائق بحكمة الله تعالى أن يبقى هذا الكتاب الخالد العالمي لغزاً لا يفهمه أحد ، أو مختوماً لا يستطيع أحد أن يفض هذا الخاتم ويستفيد منه ، أو يبقى أثراً تاريخياً في المتاحف والمستودعات ، قد اندرست لغته كما اندرست الهيروغليفية أو الفينيقية أو الحميرية ، وتعالى الله عن أن يسمي ذلك حفظاً وصيانة ، وفضلاً وكرامة ، ويمن بها على هذه الأمة وعلى الإنسانية التي لا تزال تستمد منه القوة والحيوية ، وتسير في ضوئه في كل عصر وجيل .

وليس من الحكمة أن يعيش العرب مستعبدين ، أذلاء صاغرين ، ويفقدون كل حول وطول ، وكل وسيلة لتوجيه البشرية وقيادة الإنسانية ، وتصبح هذه المنطقة التي أشرقت منها شمس الإسلام ، وانطلقت منها موجة المد الإسلامي في الآفاق ، وارتبط بها تاريخ الإسلام والمسلمين ، هذا الارتباط الوثيق الذي لا مثيل له في تاريخ الديانات ، وفيها هذا البيت العتيق الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً ، ومراح الأرواح ، ومهوى الأفئدة ، ومدينة الرسول صلى الله عليه وسلم التي هي مهبط الوحي ، وظئر[1] الإسلام ، ومصنع التاريخ .

فلا بقاء للإسلام والمسلمين – ولو قامت لهم ألف دولة ، وارتفع لهم ألف علم – ولا شرف لهم ولا كرامة ، ولا هدوء ولا راحة ، إذا ذل العرب ، وفقدوا هذه المنطقة التي فيها مقدساتهم ، وهي معقل الإسلام ، ومصدره ومأزره ، ولذلك جاء في بعض كلمات مأثورة : " إذا ذل العرب ذل الإسلام " .

ولذلك كانت هذه الأوضاع غير الطبيعية غير صالحة للبقاء والاستمرار تعارضها الفطرة البشرية ، والعقل المستقيم ، والمنطق السليم ، وطبائع الأشياء ، والحقائق الراهنة ، والظروف المحيطة ، والنصوص الدينية ، والوعود الإلهية ، والتاريخ والجغرافية والسياسة الحكيمة التي

[1] ظئر : حصن .

لم تفقد رشدها ، ولم يجن جنونها [1] . وإذا بقيت مدة قصيرة ، فهي مدة طويلة بالنسبة إلى حكم الوضع وطبيعة الأشياء وبداهة العقل .

وبعد : فإن انتصار الصهيونية في هذه الفترة التي يمر بها العالم العربي والإسلامي الآن ، وتحقيق بعض أهدافها ومخططاتها في الاستيلاء على هذه المنطقة العربية الإسلامية ، لم يكن انتصار رسالة على رسالة ، ولا انتصار أمة على أمة ، ولا انتصار دين على دين ، ولا انتصار حق على باطل ، فإن اليهود ليست لهم أي رسالة في هذا العصر ، ولم تكن هنالك معركة بين اليهود والأمة الإسلامية ، أو الشعوب العربية ، فإنه لم يسمح لهذه الأمة ولا لهذه الشعوب أن تخوض هذه المعركة ، وتبرز جدارتها وكوامنها ، ولم يسمح للإسلام بالخوض في حرب حزيران سنة ١٩٦٧ م ، بل عزل عن الميدان ، وأقصي عن ساحة الحرب بتصميم وإرادة .

إن جل ما هنالك أنه انتصار أقدر قيادة على أخيب قيادة ، وقد كان من سعادة اليهود أن تهيأت لهم قيادة بعد آلاف من السنين ، غسلت عنهم العار الذي رافقهم عبر القرون ، وفي رحلتهم الطويلة ، وصنعت لهم تاريخاً جديداً ، وكان من نكبة المسلمين والعرب أن ابتلوا – لأسباب شرحناها في الفصول الأولى من هذا الكتاب – بقيادة جنت عليهم وعلى تاريخنا الجناية الكبيرة ، وورطتهم في مأزق لا متقدم فيه ولا متأخر .

ولكن قضية القيادة وأخطائها وجناياتها مهما طالت ، فهي قضية سهلة يمكن أن تعالج ، أما قضية الرسالات ، وقضية جدارة الأمم وصلاحيتها للبقاء ، واستحقاقها للنصر ، فقضية عسيرة معقدة ، فلا يسهل إبدال رسالة برسالة ، ولا يسهل نفخ روح في جثة هامدة .

والأمة العربية الإسلامية لا تحتاج إلى رسالة جديدة ، ولا إلى دين جديد ، ولا إلى بعث وإحياء ، فإنها هي الأمة الزاخرة بالحيوية والقوة ، المستعدة للانتفاض في كل وقت .

---

[1] أما السياسة الخرقاء العمياء التي تتبعها امريكا وروسيا إزاء العرب ، فهي سياسة تقليدية خالية من كل ذكاء وابتكار وجرأة خلقية أو حياء وإنسانية ، خاضعة للنفوذ اليهودي ، ومؤسسة على (السكرتارية) الغبية ، والأوراق والملفات القديمة ، غير مبنية على الحقائق ، ومثل هذه السياسة والاتجاهات لا تنشأ إلا عندما يصيب الحكومات الهرم والشيخوخة ، ويدق أبوابها الزوال القريب .

أما القيادات فهي كأمواج نهر دافق جار ، تأتي وتذهب ، وتغدو وتروح ، وترفع رأسها ، وتثبت وجودها ، وقد تفرق بعض السفن ، وتتحطم بعض القوارب ، ولكنها تغيب في وجود النهر الخالد الكبير ، وتتوارى في هذا الخضم المائج ، والنهر هو النهر ، لا يفقد اسمه ولا وجوده ولا شخصيته .

وقد شهد التاريخ الإسلامي أمواجاً من هذا النوع ، ارتفعت حتى وصلت إلى عنان السماء ، ثم نامت في مهد هذا البحر اللجي وفي أعماقه ، فقامت حكومات وطويت حكومات ، وجاءت قيادات وذهبت قيادات ، والإسلام هو الإسلام ، والملة هي الأمة ، والرسالة هي الرسالة ، والكتاب هو الكتاب ، والإيمان هو الإيمان .

وهكذا النكبات والكوارث ، وحوادث التراجع والانتكاس ، تجارب طبيعية تمر بها الأمم الحية النامية ، الدافقة بالحياة ، ومحن تمحص بها وتصهر لتبلغ النضج والاكتمال ، وتتعود اليسر والعسر ، والسراء والضراء ، ولا تبطر عند الفتح ، ولا تيأس عند الهزيمة : (لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ آتَاكُمْ) (الحديد : ٢٣) ، كالجسم الحي النامي ، الذي لا يعتمد على حيويته وقوة مقاومته ، حتى يمر بمراحل مختلفة من الصحة والمرض ، والقوة والضعف ، واختلاف الأجواء والمناخات ، وتنوع الفصول والطقوس ، فيحتمل كل ذلك ويتمرن عليه ، والعودة إلى الصحة مضمونة للجسم السليم القوي ، والانتصار مكفول لصاحب الرسالة الفاضلة ، المفيدة للبشرية ، والصفات الكريمة العائدة بالخير على الجميع ، وصدق الله العظيم : (قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ . هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ . وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ . وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ) (آل عمران: ١٣٧ – ١٤١) .

شرح قصيدة
الكواكب الدرية في مدح خير البرية
المعروفة "بالبردة" للإمام الأكبر
الشيخ إبراهيم الباجوري شيخ الأزهر

(الحلقة الثامنة عشرة)

بقلم: الأستاذ الدكتور/غريب جمعة
جدة_ المملكة العربية السعودية

كفاك بالعلم في الأمّيّ معجزة
في الجاهلية والتأديب في اليتم (١٤٠)

(١٤٠) قوله " كفاك بالعلم " إلخ لما ذكر أنه كثيراً ما خصم البرهان من خصم عقب بذلك بذكر برهانين حيث قال : كفاك بالعلم إلخ أي كفاك العلم ، فالباء زائدة في الفاعل ، لأن زيادتها في فاعل كفى كثيرة ، وقوله " في الأمي " أي في النبي الأمي وهو الذي لا يقرأ ولا يكتب ، نسبة إلى الأم ، كأنه على الهيئة التي نزل عليها من أمه ، وهذا وصف مدح له صلى الله عليه وسلم ، لأنه دليل على أن القرآن من عند الله، أما بالنسبة لغيره صلى الله عليه وسلم فهو وصف ذم ، والجار والمجرور حال من العلم أو صفة له ، وقوله " معجزة " أي من جهة المعجزة ، فهو تمييز للنسبة في " كفى " ، وقوله " في الجاهلية " أي الزمن الذي لا علم فيه ، والجار والمجرور مثل الجار والمجرور قبله ، وإنما قيد بقوله " في الأمي " ، وقوله في الجاهلية ، لأن كلا من كونه أمياً وكونه في الجاهلية فطنة لعدم العلم ، لأنه لا يكون إلا بمطالعة الكتب العلمية ، وهو لا يقرأ ولا يكتب أو بملاقاة العلماء ، وهو منتف في الجاهلية ، فتعين أن علمه صلى الله عليه وسلم ليس إلا بتعليم من الله تعالى ، وقوله " والتأديب في اليتم " أي وكفاك بالتأديب في اليتم معجزة فهو معطوف على قوله بالعلم ، لكن المراد بالمعجزة الأمر الخارق للعادة ، وإن لم يكن مقروناً بالتحدي الذي هو دعوى الرسالة ، فاندفع ما يقال أن كونه صلى الله عليه وسلم مؤدباً في حالة يتمه لا يعد معجزة ، لأن المعجزة هي الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدي ، وهو صلى الله عليه وسلم في حال يتمه

لم يتحد ، لأن التحدي لا يكون إلا بعد الأربعين ، والمراد من التأديب التأدب ، أو أنه مصدر المبني للمفعول ، فهو بمعنى كونه مؤدباً ليكون وصفاً للنبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما قيد بقوله " في اليتم " بضمتين كما هو لغة في اليتم بضم فسكون ، لأن شأن اليتيم وهو الصغير الذي لا أب له أن لا يكون في الأدب ما يكون في غيره ، فإن الأب غالباً يهتم بتأديب ابنه ، ويسعى في تكميله بالصفات الحميدة ، بخلاف غير الأب ، وهو صلى الله عليه وسلم قد مات عنه أبوه قبل ولادته (وقيل بعدها) وتربى عليه الصلاة والسلام في كفالة عمه أبي طالب ، وكان صلى الله عليه وسلم مؤدباً بأحسن الأخلاق على خلاف العادة في اليتيم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " إن الله أدبني فأحسن تأديبي " (رواه العسكري ، وأبو الفضل بن ناصر وصححه ، ورواه ابن عساكر والسمعاني في أدب الإيلاء) وبالجملة فقد بلغ صلى الله عليه وسلم من العلوم ما لا يبلغه من تصدى لها ومن الآداب ما لا يناله من له مؤدب ، فدل ذلك على أنه رسول الله حقاً .

خدمته بمديح أستقيل به

ذنوب عمر مضى في الشعر والخدم (١٤١)

(١٤١) قوله " خدمته بمديح " إلخ أي خدمته صلى الله عليه وسلم بما تقدم من المدح أطلب من الله أن يقيلني بسبب هذا المديح ذنوب عمر مضى في الشعر مدحاً لأبناء الدنيا ، و " الخدم " بكسر الخاء المعجمة وفتح الدال المهملة جمع خدمة ، فالمراد بالمديح ما تقدم من المدح ، والسين والتاء للطلب كما تقدمت الإشارة إليه ، وجملة قوله " مضى " إلخ صفة لعمر ، وقد ذكر بعضهم أن الناظم كان في بادئ أمره كاتب إنشاء عند بعض السلاطين ، وقيل : إنه كان وزيراً ، وهذا وإن كان مباحاً إلا أنه قد يحوج إلى المحرم كما يؤخذ من البيت بعده .

إذ قلداني ما تخشى عواقبه

كأنني بهما هدي من النعم (١٤٢)

(١٤٢) قوله " إذ قلداني " إلخ لأنهما قلداني ، فهذا البيت تعليل للبيت قبله ، والضمير الفاعل في قلداني للشعر والخدم ، وقوله " ما تخشى عواقبه " أي آثاما تخشى عواقبها من أنواع العذاب ، وقوله " كأنني بهما هدي من النعم " أي كأنني بسبب الشعر والخدم هدي من

النعم التي هي الإبل والبقر والغنم ، ومن شأن الهدي أن يقلد بحبل شيئ في عنقه من نعل ونحوها ليعلم أنه هدي ، وحاصل المعنى : أن الشعر والخدم جعلا الآثام التي تخشى عواقبها من أنواع العذاب قلادة في عنقي ، فصرت بسببهما أشبه الهدي من النعم ، فكما لا يخفى حال الهدي على من رآه بما جعل في عنقه من نعل ونحوها ، كذلك لا يخفى حالي على من رآني وعرف حالي بما اكتسبته من الآثام التي تخشى عواقبها بسبب الشعر والخدم .

أطعت غيّ الصبا في الحالتين وما
حصلت إلا على الآثام والندم (١٤٣)

(١٤٣) قوله " أطعت غيّ الصبا " إلخ بيّن بهذا البيت سبب كون الشعر والخدم قلداه الآثام التي تخشى عواقبها ، وذلك لسبب هو إطاعة غي الصبا ، والغي ضد الهدى ، وأضيف للصبا لأنه يدعو إليه ، فإنه زمن الجهل والبطالة ، وقوله " في الحالتين " أي حالتي الشعر والخدم ، وقوله " وما حصلت إلا على الآثام والندم " أي وما حصلت منهما إلا على الآثام التي صدرت مني ، وعلى الندم على تلك الآثام .

فيا خسارة نفس في تجارتها
لم تشتر الدين بالدنيا ولم تسم (١٤٤)

(١٤٤) قوله " فيا خسارة " إلخ هذا البيت تحقيق للندم ..... للنفس لأن فيه نداء عليها بالخسارة في تجارتها ، فكأنه قال : يا خسارة نفس موصوفة بما ذكر أحضري فهذا أوانك ، وهذا كناية عن استعظام الخسارة لهذه النفس والتعجب منها ، فإن عادة العرب إذا استعظموا شيئاً وتعجبوا منه نادوه ليحضر ، وقوله " في تجارتها " متعلق بخسارتها ، وقوله " لم تشتر الدين بالدنيا " أي لم تأخذ الدين بدل الدنيا بل عدلت عن العظيم الباقي إلى الخسيس الفاني ، وقوله " ولم تسم " بفتح المثناة الفوقية، وضم السين المهملة ، أي ولم تتعرض لأخذ الدين بدل الدنيا ، بل أخذت الدنيا وتركت الدين الذي تنجو به في الآخرة ، وكأن الناظم عنى نفسه فنادى عليها بالخسارة ، حيث اتبعت الشعر والخدم لأبناء الدنيا ، ولو صحبها التوفيق لتركت ذلك واشتغلت بالدين لكن التوفيق بيد الله يعطيه من يشاء ..

ومن يبع آجلاً منه بعاجله
يبن له الغبن في بيع وفي سلم (١٤٥)

(١٤٥) قوله " ومن يبع آجلا منه " إلخ هذا البيت تتميم لتحقيق الندم ، وتبكيت النفس لأن فيه توعداً بالغبن حيث بين فيه أن من يبيع الآجل بالعاجل يظهر له الغبن ، والمراد بالآجل الثواب الذي يكون في الآخرة المحققة الباقية وبالعاجل الذي يأخذه من الدنيا الزاهية الفانية ، وعلى هذا المثل المشهور " برة عاجلة خير من درة آجلة " (برة : بضم الباء وهي الواحدة من القمح خير من درة ، بضم الدال وتشديد الراء المشددة المفتوحة ، وهي الجوهرة النادرة) ولما كان الثواب المذكور محققاً ولا بد ، أطلق عليه عاجل ، لأنه كان حاصلاً بالفعل ، ولما كان الشيئ الذي يأخذه من الدنيا غير محقق أطلق آجل ، والظاهر أن الضمير في منه في البيت قبله راجع للدين ، كذا قال بعض الشارحين ، والظاهر أنه راجع لـ " من يبع " كالضمير في عاجله ، وقوله " يبن له الغبن " أي يظهر له الخداع ، وقوله " في بيع وفي سلم " كل منهما متعلق بالغبن والعطف في ذلك من قبيل عطف التفسير ، لأن البيع المذكور في كلام المصنف يسمى سلماً فاندفع ما يقال : الذي تقدم في كلام الناظم صورة السلم ، وأن صورة البيع غير بيع السلم ، وبعض الشارحين طرق احتمال أن يكون في كلام الناظم حذف ، والتقدير ومن يبع آجلاً من متاع الآخرة بعاجله من متاع الدنيا أو يشتري عاجلاً من متاع الدنيا بآجله متاع الآخرة ، فقوله في " بيع " راجع للصورة الأولى ، وقوله " وفي سلم " راجع للصورة الثانية وفيه يكلف . (السلم : السلف ، والمعنى يظهر له الغبن في حالة البيع وفي السلف أيضاً)

إن آت ذنباً فما عهدي بمنتقص
من النبي ولا حبلي بمنصرم (١٤٦)

(١٤٦) قوله " إن آت ذنباً " إلخ هذا البيت تأنيس للنفس وترجّ لها في رحمة الله تعالى ، وآت أصله أأت بهمزتين قلبت الثانية أيضاً فصارت آت بالمدة ، وهو مجزوم بإن الشرطية وعلامة جزمه حذف حرف الياء ، وقوله " فما عهدي بمنتقص من النبي " أي فما إيماني بمنقطع عن النبي (صلى الله عليه وسلم) لأن الذنب لا ينقص الإيمان ، فالمراد بالعهد الإيمان فتكون الإضافة في قوله " عهدي " العهد والمعهود هو الإيمان ، وقوله " ولا حبلي بمنصرم " أي ولا وصلي بمنقطع من النبي صلى الله عليه وسلم ،

فالحبل مستعار للوصل وفي البيت الحذف من الثاني لدلالة الأول ، كما في نظائره والتقدير ولا حبلي بمنصرم من النبي صلى الله عليه وسلم .

فإن لي ذمة منه بتسميتي
محمداً وهو أوفى الخلق بالذمم (١٤٧)

(١٤٧) قوله " فإن لي ذمة " إلخ هذا البيت تعليل للبيت قبله ، و وجه ذلك أن اختياره التسمية باسمه صلى الله عليه وسلم دليل على محبته فيه ، فإنه لا يتسمى بالاسم إلا من أحب مسماه ، وأما من يكرهه فلا يتسمى به ، وقوله " وهو أوفى الخلق بالذمم " أي وهو صلى الله عليه وسلم أشدهم وفاء بها ، فيقوم بحقها بأن يشفع لأهلها لعظم جاهه وعلو مكانته عند ربه ، وفي كلام المصنف ترغيب في التسمية باسمه صلى الله عليه وسلم وقد جاء في ذلك أحاديث : فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يوقف عبدان بين يدي الله تعالى فيأمر بهما إلى الجنة فيقولان : ربنا بما استأهلنا الجنة ولم نعمل عملا يجازينا الجنة ؟ فيقول الله عز وجل : عبداي أدخلا الجنة ، فإني آليت على نفسي أن لا يدخل النار من اسمه أحمد أو محمد " وعن جعفر بن محمد " إذا كان يوم القيامة نادى مناد ألا ليقم من اسمه محمد فيدخل الجنة كرامة لاسمه " وفي لفظ آخر : " ينادي يوم القيامة : يا محمد فيرفع رأسه في الموقف ، فيقول الله عز وجل أشهدكم أني غفرت لكل من اسمه علي اسم محمد " وعن أبي أمامة : " من ولد له مولود فسماه محمداً تبركاً كان هو ومولوده في الجنة " (رواه الحافظ الديلمي صاحب الفردوس) وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : " ما من مائدة وضعت فحضر عليها من اسمه أحمد أو محمد إلا قدس الله ذلك المنزل مرتين " وبالجملة فالتسمية باسمه صلى الله عليه وسلم أمر مندوب إليه نسأل الله تعالى أن ينظمنا في سلك محبته بمنه وفضله ورحمته .

إضافة لا بد منها :

هذه الأحاديث وأمثالها لعلماء الحديث فيها مقال فليرجع إليه من شاء في مظانه . ونحن نثبت ما روي عن زين العابدين رضي الله عنه أنه قال له رجل : إنكم أهل بيت مغفور لكم ، فغضب وقال : نحن أحرى أن يجري فينا ما أجرى الله تعالى في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم من أن نكون كما قلت : إنا نرى لمحسننا من الأجر ضعفين ولمسيئنا ضعفين من

العذاب ، وقرأ هذه الاية والتي بعدها " يا نِسَآءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً . وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً " (الأحزاب : ٣٠/٣١) (روح المعاني للعلامة الألوسي ، دارالفكر ، بيروت ، ج ١١ ، طبعة عام ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م) هذا في حق أكرم النساء وأطهرهن على الإطلاق ، فماذا يكون الحال مع أفراد أمته الذين يحملون اسمه صلى الله عليه وسلم ويرتكبون الفواحش ما ظهر منها وما بطن ؟

إن لم يكن في معادي آخذاً بيدي
فضلاً ، وإلا فقل يا زلة القدم (١٤٨)

(١٤٨) قوله " إن لم يكن في معادي " إلخ أي إن لم يكن صلى الله عليه وسلم في يوم عودي إلى الله تعالى آخذاً بيدي بأن يشفع لي ، حال كون ذلك فضلاً منه ، لا لسابقة مني تقتضي ذلك ، فقل يا زلة القدم وهو كناية عن سوء الحال والوقوع في الشدة ، و " إلا " أي وإلا لم يكن في ذلك اليوم آخذا بيدي بأن كان آخذا بيدي فقل يا ثبات القدم ، وهو كناية عن حسن الحال وحصول النعمة ، فقوله خطاباً لمن جرده من نفسه، " فقل يا زلة القدم " جواب الشرط الأول وهو قوله " إن لم يكن آخذا بيدي ، وجواب الشرط الثاني وهو قوله " وإلا " فإن أصله إن الشرطية المدغمة في لا النافية محذوف لدلالة المقام والسياق عليه ، والتقدير : وإلا فقل يا ثبات القدم أي وإن انتفى لم يكن آخذا بيدي بأن كان آخذاً بيدي فقل يا ثبات قدمي ، وبهذا يندفع استشكال هذا البيت، بأن الظاهر منه أن قوله فقل " يا زلة القدم " جواب الشرط الثاني فيصير المعنى : وإن انتفى لم يكن آخذاً بيدي ، فقل يا زلة القدم وهذا فاسد لا شك في بطلانه وهذا كله على في النسخ من قوله " إن لم يكن في معادي " إلخ وقيل الرواية : فإن لم يكن في معادي وعليه فلا إشكال، لأن جواب الشرط الأول محذوف للعلم به من المقام والسياق ، وجواب الشرط الثاني مذكور بقوله " فقل يا زلة القدم " وتقدير البيت على هذا : فإن لم يكن صلى الله عليه وسلم في يوم عودي إلى الله تعالى آخذاً بيدي، بأن يشفع لي حال كونه ذلك فضلاً منه إلا لسابقة مني تقتضي

ذلك فقل : يا ثبات القدم وإلا أي وإن لم يكن كذلك فقل يا زلة القدم ، وهذاظاهر لا إشكال فيه .

حاشاه أن يحرم الراجي مكارمه
أو يرجع الجار منه غير محترم (١٤٩)

(١٤٩) قوله " حاشاه أن يحرم " إلخ هذا البيت لزيادة تسكين النفس من خوفها وتقوية تطمينها من قلقها ، وحاشا هنا اسم بمعنى المحاشاة وهي التنزيه فهو واقع موقع المصدر فيكون منصوباً بفعل مضمر، والتقدير أحاشيه حاشاه ، أي أنزهه تنزيهه ، والضمير المتصل به في محل جرٍ بإضافته إليه ، وأما حاشا المستعمل في الاستثناء ، فتارة يستعمل فعلاً وتارة يستعمل حرفاً ، كما هو مشهور ، وقوله " أن يحرم الراجي منه مكارمه " أي من أن يحرم النبي صلى الله عليه وسلم الراجي منه مكارمه فهو على تقدير " من " والفاعل ضمير يعود على النبي صلى الله عليه وسلم والراجي مفعول وسكنت ياؤه على لغة ، والمكارم جمع مكرمة والمراد منها الشفاعة ، ويجوز ضم ياء يحرم على أنه مضارع حرم وفتحها على أنه مضارع حرم ، فإنه يقال أحرمه يحرمه بضم الياء وحرمه يحرمه بفتحها ، ويصح بناء الفعل للفاعل وقد قدمنا الحل عليه ويصح أيضاً بناؤه للمفعول وعليه فالراجي نائب فاعل وتسكين يائه حينئذ ظاهر، وقوله " أو يرجع الجار منه غير محترم " الظاهر أن " أو " بمعنى الواو ، فالمعنى وحاشاه من أن يرجع الجار منه أي المستجير به الداخل في جواره حال كونه غير محترم ، بل يرجع محترماً بشفاعته صلى الله عليه وسلم ، فالجار بمعنى المستجير " ومنه " بمعنى وغير محترم حال من الجار جعله الله من أهل شفاعته أجمعين .

ومنذ ألزمت أفكاري مدائحه
وجدته لخلاصي خير ملتزم (١٥٠)

(١٥٠) قوله " ومنذ ألزمت أفكاري " إلخ هذا البيت استدلالاً على قوة رجائه وأنه لا يخيب في ظنه فكأنه قال : إنما قوى رجائي وأني لا أخيب في ظني لأني منذ ألزمت أفكاري إلخ و " منذ " ظرف زمان وهو ظرف " لـ وجدته " وأفكاري مفعول أول لألزمت ، ومدائحه مفعوله الثاني، والضمير العائد على النبي صلى الله عليه وسلم مفعول أول لـ وجدت ، وخير ملتزم بكسر الزاي مفعول الثاني ، وبه يتعلق الجار

والمجرور قبله ، وتقدير البيت : وجدت النبي صلى الله عليه وسلم في الزمن الذي ألزمت فيه أفكاري مدائحه خير ملتزم لخلاصي من جميع الشدائد التي تصيبني ، والأفكار جمع فكر وهو حركة النفس في المعقولات والمدايح : جمع مديح ، وهو الثناء الحسن ، وإنما كان صلى الله عليه وسلم خير ملتزم لخلاصه من الشدائد ، لأنه وفى بخلاصه منها على أحسن الوجوه وأتمها ، وأشار المصنف بذلك إلى الداء الذي أصابه ، وهو داء الفالج والعياذ بالله تعالى منه ، وكان هو السبب في إنشاء هذه القصيدة ، فإنه لما أصيب به عملها فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ومسح بيده الكريمة عليه فعوفي ، فلما استيقظ قال له بعض أصحابه الصالحين : أسمعني القصيدة التي مدحت بها النبي صلى الله عليه وسلم ، فلقد سمعتها بين يديه صلى الله عليه وسلم وهو يتمايل مثل القضيب .

ولن يفوت الغنى منه يداً تربت
إن الحيا ينبت الأزهار في الأكم (١٥١)

(١٥١) قوله " ولن يفوت " إلخ ، هذه الجملة مستأنفة والغنى بالكسر مع القصر اليسار ، ومع المد تطريب الصوت مع سرور ، وبالفتح مع القصر : الإقامة ، ومع المد : الكفاية ، والضمير في منه عائد على النبي صلى الله عليه وسلم والجار والمجرور متعلق بمحذوف إما صفة للغنى أو حال ، فالأول إن قدر معرفة والثاني إن قدر نكرة ، و " من " للابتداء وقوله " يدا " مفعول وجملة قوله " تربت " صفة ليداً وتربت بكسر الراء : أي التصقت بالتراب ، لكونها مفتقرة افتقاراً حسياً ، بأن ضيعت ما كان فيها من الأموال أو معنوياً بأن ضيعت ما كان لها من الثواب ، لاقترافها المعاصي ، وإنما لم يفت الغنى منه صلى الله عليه وسلم اليد المذكورة لعموم الغنى منه صلى الله عليه وسلم لجميع الأيدي التي تكون كذلك ، ومنها يد الناظم وقد استدل على ذلك بقوله : " إن الحيا ينبت الأزهار في الأكم " ووجه الاستدلال بذلك أنه كما يشاهد محسوساً أن الحيا بالقصر الذي هو المطر ، ينبت الأزهار جمع زهر في الأكم بضمتين جمع أكمة كقصيب جمع قصبة ، والأكمة هي الربوة أي المحل المرتفع من الأرض ، مع كونها ليست مظنة النبات لعدم استقرار الماء عليها لعلوها ، كذلك صلى الله عليه وسلم ينيل الغنى من ليس مظنه الغنى وهو اليد التي تربت،

وإنما أنبت الحيا الأزهار في الأكم مع أنها مظنة عدم النبات ، بسبب عدم استقرار الماء عليها وسرعة انحداره عنها لعمومه حتى للأكم ، والتشبيه المذكور إنما هو على سبيل التقريب وإلا فهو صلى الله عليه وسلم لا يحيط بحقيقة كماله إلا الله تعالى .

ولم أرد زهرة الدنيا التي اقتطفت

يدا زهير بما أثنى على هرم (١٥٢)

(١٥٢) قوله " ولم أرد زهرة الدنيا " إلخ لما كان قوله " ولن يفوت الغنى " إلخ يوهم التعريض بطلب شيئ من حطام الدنيا دفع هذا التوهم بقوله " ولم أرد زهرة " إلخ وإنما أردت الغنى منه بالشفاعة في الآخرة في المذنبين ، والمراد بزهرة الدنيا مستلذاتها من المال وغيره ، وإنما عبر عنها بالزهرة تشبيهاً لها بالزهر الذي لا يدوم التمتع به ، بل يتغير سريعاً ، فيكون في ذلك استعارة تصريحية ، والتعبير بالاقتطاف ترشيح لها ، وهو إما باق على حقيقة أو مستعار للأخذ ، وقوله " يدا زهير " فاعل باقتطفت والمراد بزهير الشاعر المشهور وهو ابن أبي سلمى بضم السين أبوكعب صاحب قصيدة " بانت سعاد " المشهورة وله أخت تسمى الخنساء كانت شاعرة مشهورة ، وكان الشعر فيهم وراثة ، ولذلك كان زهير من الشعراء المقدمين على سائر الشعراء في الجاهلية كامرىء القيس والنابغة الذبياني وعنترة وطرفة بن العبد ، وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلى زهير وعمره مأة سنة فقال صلى الله عليه وسلم : (اللهم أعذني من شيطانه) فما لاك بعدها بيتاً حتى مات ، وقوله بما أثنى على هرم بكسر الراء وهو أحد أجواد العرب وكان أحد ملوكهم وهو ابن سنان بن حيان (بالحاء المهملة وبعدها مثناة تحتية) وكان يصل زهير بالصلات الجزيلة الخارجة عن العادة ، ومن جملة ما اتفق له معه أنه حلف أنه كلما مدحه أعطاه غرة (بضم الغين) أي عبداً أو أمة أو قيمتها وأنه كلما سلم عليه يعطيه كذلك حتى إنه من كثرة عطائه له استحيا منه فكان إذا رآه في قوم فقال أنعموا صباحاً غير هرم ، فكل هذا لم يرده الناظم إجلالاً لمده صلى الله عليه وسلم عن ذلك إذ لا يتوسل بالعظيم إلا لنيل عظيم .

أبعادٌ في دعوة الإيمان والقرآن

بقلم : الدكتور إحسان قاسم الصالحي مركز بحوث رسائل النور - إسطنبول

فقد منّ المولى الكريم علينا ورزقنا رزقاً حسناً بترجمة الأعمال الكاملة للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي وهي "رسائل النور" من اللغة التركية إلى اللغة العربية . فلقد ألّف الأستاذ النورسي رسائله النورية هذه وهو يحمل آلام الأمة الإسلامية بل الإنسانية جمعاء ، في أحلك فترة من فترات التاريخ الكبرى التي حلت بها ، منذ أوائل القرن الرابع عشر الهجري .

فرسائل النور " كينونة فكرية وروحية متكاملة " (١) وتلميذة أمينة من تلامذة القرآن الكريم ، ولا يصطدم منهجها القرآني هذا مع أي منهج من المناهج القرآنية ولا يلغيه ، إذ "لا يفرض بالضرورة البداية الصفرية في المعرفة التربوية والنظرية ، فضلا عن المعركة الحضارية ، بل يقتضي استثمار كل ما من شأنه أن يفيد في بيان الحقائق الإيمانية المستقاة من القرآن الكريم " (٢) .

والحق أن دعوة الإيمان والقرآن أو حركة رسائل النور ، وحياة الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي ، والعقيدة التي تدعو إليها هذه الدعوة ، والفكر الذي تحمله ، تحتاج إلى جهود الباحثين المكثفة لإماطة اللثام عنها ، لضخامتها ، وشموليتها وعمقها .

فحياة الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي في حدّ ذاتها سلسلة من المآسي والأحزان ، تحمّل ما لا يتحمله الجبال الراسيات ، مما يقوم شاهد صدق على تربيته الربانية ، وإيمانه العميق . سجّلها في الرسائل بصدق تام ودقة متناهية؛ وبيّن كيف تحولت تلك الآلام في ضميره إلى قيم سلوى بديلة بفضل الإيمان والقرآن . وقد خصصتُ بحثي لندوة أغادير الموسوم بـ" الأبعاد الجمالية في دعوة الإيمان والقرآن" حول هذا التحول .

أما <u>البُعد العَقدي لدعوة الإيمان والقرآن</u> ، فقد قامت على عقيدة صافية ، يحدد إطارها الوحي الإلهي القاطع في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . فتغلغلت بفضل الله تعالى هذه العقيدة الصافية في كيان طالب النور وغدت تنبض بالحركة والحياة وتظهر في السلوك والتصرفات ، حتى تحولت إلى حياة فاعلة ومتفاعلة ، فوصفها الأستاذ فريد الأنصاري بإيجاز بليغ : " إن طلاب النور يشعرونك أنك أمام

عمّال الآخرة . إن أنداء الجنة تفوح من قلوبهم وهم يمارسون مهامهم " .(٣)

وأما بُعدها الفكري فيلمسه قارئ الرسائل بإمعان؛ أنه من السعة والشمول ، بحيث يصدق عليه قول الشاعر محمد إقبال :

إنما الكافرُ حيرانٌ له الآفاقُ تيهْ
وأرى المؤمنَ كوناً تاهت الآفاقُ فيه

ففكرُ هذه الدعوة كونٌ قائم بذاته ، في توازن عجيب ، ومرونة فائقة ، وشمولية متناسقة ، يؤكد على البناء ويبتعد عن الهدم . يستمد أصولَه من القرآن الكريم الذي اعتصم به واتخذه مرشدا ودليلاً .

فنجده وقد صاغ من أسماء الله الحسنى في الرسائل بناءً كونياً واحداً متناسقاً ، يشكل يقينيات الإنسان المؤمن ونظرته إلى الكون والحياة والمجتمع ، فينقذ بذلك إنسان العصر الحاضر من غربة قاتلة وفصام نكد .

وأما بُعدُها الدعَوي ، فهي دعوة كريمة جامعة ، لا تعرف التعصب ، ولا تستغل الدين لأي مكسب دنيوي مهما كان ، ولا تحتكره ، ولا تؤمن بالفرقة . تمد الأيدي الحانية إلى الناس جميعاً ، مؤمناً كان أم غير مؤمن ، تحرص على ترسيخ الإيمان في قلوبهم ، وبذر بذور المحبة في نفوسهم أياً كانوا . ولا تتعرض لأحد ، فلا تقول إلا الخير، ولا تنظر إلا إلى الجانب الحسن والإيجابي من كل شيء . وتوجّه هجومها الكاسح إلى الكفر المطلق . تؤمن بالعمل الدؤوب ، وتتنكر للثرثرة الفارغة ، تعشق التواضع والفصاحة ، وتكره الكبرياء والحذلقة، والاستعلاء على الآخرين .

وأما بُعدها الحركي ، فهي حركة عقل ذكي ، تحسن التدبير، وتعي المرحلة ، وتدرك طبيعة العصر ، وترسم طريقها بدقة في حدود الممكن ، تعانق سنن الله أو الشريعة الفطرية في الحياة الاجتماعية . تنبه الأمة إلى أصالتها ، وتعيد لها شخصيتها المستقلة ، وتوجه عبوديتها إلى خالقها ، وتنفخ فيها روح الحياة .

وهي سواء في سعيد القديم وسعيد الجديد ، تستهيذ من سياسة الشيطان ، وشياطين السياسة ، لتدخل في سياسة الرحمن بأمر القرآن . فتحرك الجموع ، وتصوغهم صياغة جديدة ، وتنشئهم نشأة عزيزة .

وعلى الرغم من أن المستهدين برسائل النور لا ينتظرون أي شيء مقابل عملهم لله ، إلا أنه سبحانه وتعالى قد أجرى على أيديهم فضلاً منه

وكرماً ، أعمالاً جليلة ، لسلوكهم هذا النهج الحركي السليم بالعمل الإيجابي البنّاء الخالص للّه والمنسجم مع السنن الكونية الإلهية ، والأخذ بالتدرج الفطري وتجنب الوقوع في التيارات المتصارعة . . إذ في ظل هذه الحركة الإيمانية انتشرت رسائل النور ، وغزت العقول والقلوب والأرواح بجهاد معنوي كبير وشامل انتهى إلى تكوين جيل مؤمن انطلق في المجتمع ينشر حقائق الإيمان والقرآن بالتلمذة على رسائل النور؛ فيما أسسته من مدارس النور ومن دورات تحفيظ القرآن الكريم ومن المدارس الابتدائية والإعدادية والجامعات ومن المؤسسات الثقافية والعلمية ، ومن الإذاعات المرئية والمسموعة ومن الجرائد اليومية والمجلات العلمية والمتخصصة في شؤون الحياة المختلفة . . وأمثالها من الثمار الكثيرة . والفضل للّه وحده أولا وآخراً ، والمنّة والحمد له وحده .

وأخيرا – وليس آخراً – من يدرس رسائل النور بعمق يدرك تماماً أنه يتجدد في كل يوم ، فلا يكون فكره ساكناً ، بل يكون كالليث في عرينه ، ينتظر اللحظة المناسبة ليتقدم خطوة أخرى إلى عبودية أعمق وأخلص للّه .

ذلك لأن رسائل النور لم تكتب لمرحلة معينة ، ولا لقوم خاص ، ولا هي أسيرة زمن محدد ، بل تتبع من قلب القرآن الخالد وحده وتقف وراء موكب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وحده ، وهل في غيرهما حجة لنا في يوم القيامة.

وختاما ، رحم اللّه أستاذنا النورسي الذي أودع إلينا هذا السفر النفيس رسائل النور (رحمة واسعة) ، وأجزل مثوبته ، ورفع مقامه ، وألحقه بموكب الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين . وحسن أولئك رفيقا .

واللّه نسأل أن يوفقنا إلى حسن القصد وصحة الفهم وصواب القول وسداد العمل .

وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم .

---

(١) النورسي في رحاب القرآن للدكتور عشراتي سليمان ص ٥ ، شركة سوزلر للطباعة والنشر – القاهرة ١٩٩٩

(٢) بديع الزمان النورسي وإثبات الحقائق الإيمانية (المنهج والتطبيق) للدكتور عمار جيدل ص٧٢ ، مطبعة النسل – استانبول ٢٠٠١

(٣) جريدة التجديد المغربية العدد ١٢١

الربانية أهميتها وحاجتها في المجتمع وأبرز العلماء الربانيين عبر القرون

بقلم : الأخ عبد الوهاب الشكوري الندوي
(السنة الثانية من الدراسات العليا ، بجامعة ندوة العلماء ، لكناؤ – الهند)

الحمد لله رب العالمين و العاقبة للمتقين والصلاة والسلام على رسو له محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

حينما يضعف الإيمان و تتغلغل المادة في الروح وتستولي الشكوك والشبهات على الإيمان والأعمال والأفكار ، وحينما تأتي الأفكار الفاسدة والعقائد المظلمة ولا يبالي الإنسان بارتكاب الذنوب ، وحينما يفقد الإخلاص والطاعة والعبادة معانيها ، وحينما تغطي الشهوات واللذات العقول وتسد طريق التفكير في الآخرة وحينما يشغف الناس باللهو و اللعب وتضييع الوقت أكثر من الصلاة والتلاوة والتعبد ، وحينما حبست نفسية الإنسان في الظلمة والمعاصي ، فإذا به يبحث عن الطمأنينة والراحة ويطلب طريق النجاة و منفذ الفرار ويمشي إلى الطريق الذي يصل به إلى ثورة في الباطن والروح ، فيكون في حاجة ملحة إلى التزكية والرجال الربّانيّين ليكشفوا الغطاء عن العيون ويقوموا بإصلاح النفوس ، من هنا تتضح حاجة الناس إلى الربّانية ، فمن الواجب أن نفهم المعنى الحقيقي للربّانية ومعنى التزكية وأسسها وإيجابياتها وغاية الرجل الربّاني وكيفيته ووظيفته وأثره في المجتمع ، وكيف يستطيع الإنسان أن يكون ربّانياً ، لأن معاني الربانية الخاطئة انتشرت بين الناس واشتبه الأمر عليهم.

مفهوم الربّاني :

هذه كلمة ذات قدسية تحمل معاني غزيرة ، من معانيها " كما نقل ابن عباس وابن جبير وقتادة وغيرهم يعني : أهل عبادة وتقوى "[1]

١. فتح القدير ، تهذيب تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص : ٤٩٩

ويقول صاحب التفسير الجامع : " الربّاني الذي يربي الناس بصغار الأمور قبل كباره "[1] وقال بعض العلماء : " من علم وعمل وعلّم فهو الربّاني " .

أساس الربّانية والتزكية :

من هنا تنشأ أسئلة كثيرة في الأذهان ، ومنها : هل من اللازم للتوصل إليها أن يلتحق الرجل بأي مدرسة أو يجلس في زاوية من الزوايا ويترك الناس كرهبان اليهود كما ذكر القرآن (وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا) (سورة الحديد : ٢٧) وهل يجب لإدراك معناها أن يترك الطعام الشهي والشراب المريئ والمسكن الهنيئ وينعزل عن الزوجة والأولاد ويتركهم بحالهم ولا يبالي بتربيتهم وتعليمهم كي يقول الناس : هو رجل متصوف وعابد كبير لا يحب الدنيا ولذاتها ولا يأكل ولا يشرب إلا قليلا ، وقد جاء في الحديث الشريف " الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ولكن الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يديك أوثق بما في يدي الله وأن يكون ثواب المصيبة إذ أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها أبقيت لك "[2] وإذا رجعنا إلى القرآن والسنة وجدنا بوضوح أن القرآن أمرنا بأن نجمع بين الروح والمادة ولا يأمرنا بترك الدنيا كاملا ، يقول (وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا) (سورة القصص:٧٧) وفي مكان آخر (وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ) (سورة الجمعة : ١٠) وكان الرسول صلى الله عليه وسلم نموذجا عمليا في هذه الحقيقة ، كان يأكل ويشرب ، يصوم ويفطر ، ينام و يستيقظ و يمشي بين الناس ، ثم قام بتزكية الناس ورأى الناس قد خاضوا في ملذات الدنيا وفقدوا الروح وتركوا المعنوية وتمسكوا بأذيال الدنيا فاعتقد صلى الله عليه وسلم أن هؤلاء لا يستطيعون أن يطيروا بجناح واحد ، ففي هذه التربية ما أمرهم بترك الدنيا و العزلة وباختيار زاوية وقطع الصلة مع الناس بل أدخل الروح والإيمان في قلوبهم وزكاهم أحسن التزكية بحيث صاروا رجالا ربّانيين يقدمون أموالهم وأنفسهم في سبيل الله لإعلاء كلمة الله بدون أيّ تأخير أو تردد .

---

٢. تفسير القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج ٤ ، ص : ١٢٢

١. أخرجه الترمذي في كتاب الزهد ، رقم : ٢٣٤٠

آراء العلماء في الربّانية و التزكية:

" قد بحث الإمام الدهلوي في كتابه المفيد الرائع (حجة الله البالغة) عن أهمية التزكية وطرقها التي وردت في الأحاديث الصحيحة واكتفى بمجرد التأكيد على روح الاحتساب والاستحضار والنية والعزيمة والكيفيات الباطنة واقترح علاج الأمراض الروحية بالتمسك بالفرائض والعبادات والأدعية، بحيث يستطيع الإنسان بالعمل بها أن يصل إلى أقصى درجات التزكية والإحسان وبيّن أن التزكية تكون نتيجة النور في الباطن وصحوة القلب وزكاة النفس وطهارتها ومرضاة الله تعالى . " [1]

ويقول في كتابه التفهيمات الإلهية : وهو يتحدث عن التصوف الحقيقي : " ليس منّا من لم يتدبّر كتاب الله، ولم يفهم حديث نبيه صلى الله عليه وسلم ، ليس منّا من ترك ملازمة العلماء (أعني الصوفية) الذين لهم حظ من الكتاب والسنّة ، أو الراسخين في العلم الذين لهم حظ من الفقه ، أمّا الجهّال من الصوفية والجاحدون للتصوّف فأولئك قطاع الطرق ولصوص الدين فإياك وإياهم جعلنا الله سبحانه وتعالى ممن يطيع ، ويتبع رضوانه ولا يشرك به شيئاً فإنما نحن به وله".[2]

ومولانا جلال الدين الرومي يشير بأن المعرفة الصحيحة لا تتأتى إلا بتزكية النفس ويدعو المشتغلين بالفلسفة وعلم الكلام إلى دراسة الحكمة الإيمانية وبأن يعيشوا مع الناس ويكونوا جزءاً أصلياً وحياً في المجتمع وأن يلعبوا دوراً هاماً في حقل الدعوة والإرشاد ولا يستوحشوا من الناس ولا يهربوا منهم بل يرافقونهم ويعدون أنفسهم منهم ويفهمون بأن وجودهم كالقلب في المجتمع وإذا فقد الناس القلب ، فسد المجتمع كله فالناس في حاجة ملحة إلى أن يعيشوا مع العلماء الربانيين " وهو يحارب البطالة والتعطل والرهبانية والتوكل السلبي الذي لجأ إليه العارفون في القرون الأخيرة ويدعو إلى الكدح والجهاد والحياة الاجتماعية. ويقول : لولم تكن الحياة الاجتماعية مطلوبة ومفضلة في الإسلام لم يكن الأمر

رجال الفكر والدعوة في الإسلام للإمام الندوي ، ج ٤ ، ص : ٢٠٤ - ٢٠٥.
ص : ١٢٠ راجع للتفصيل ساعة مع العارفين، للأستاذ الدكتور سعيد الأعظمي الندوي ، ج ١ . ٢

بالجمعة والجماعة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ."[1]

ويقول الداعي الكبير والمتفكر الحصيف الإمام البارع العلامة الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي رحمة الله عليه : " التزكية هي تهذيب النفس وتحليتها بالفضائل وتحليتها من الرذائل ، وتخليتها من الحسد والبغض وحب الدنيا وحب الجاه وتحليتها بحب الله "[2] ويقول: " فكان الأجدر بنا وبالمسلمين أن نسمي العلم الذي يتكلف بتزكية النفوس وتهذيبها (بالتزكية) أو (الإحسان) أو (فقه الباطن) لو فعلنا ذلك تصالح الفريقان اللذان فرّق بينهما المصطلح فحينئذ لم يختلف في هذه القضية اثنان وأقروا جميعا بوجود شعبة من الدين وأن لا صلاح للحياة الاجتماعية إلا بتحقيق هذه الشعبة في الحياة "[3] ويقول : إننا لا ندعو بذلك إلى الامتناع عن الطيبات و تحريم انتفاع عن الطيبات وتحريم انتفاع بوسائل الحياة (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ) (سورة الأعراف :٣٢) (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ) (سورة التحريم : ١) " نعم لنتمتع بالطيبات وإذا كنا نستطيع أن نأكل اللذيذ من الطعام ونسكن الهنيئ من البيت فلا بأس بذلك ولا حاجة أن نتكلف في الزهد ، كما روي من بعض الغلاة المتصوفين أنه كان يلقي الماء في الإدام المطبوخ المهيأ للأكل حتى يفقد طعمه ، فمثل هذه التزكية ليس من الإسلام في شيئ"[4] ويقول في مدح الرجال الربانيين المخلصين : " لو لا هؤلاء أصحاب النفوس المزكاة الذين وصلوا إلى درجة الإحسان لانهار المجتمع الإسلامي إيمانياً وروحانية وابتلعت موجة المادية الطاغية العاتية البقية الباقية من إيمان الأمة وضعفت صلة القلب بالله والحياة بالروح والمجتمع بالأخلاق "[5]

---

١. راجع للتفصيل رجال الفكر والدعوة للإمام الندوي ، ج ١ ، ص: ٣٢٤ - ٣٣٨ ، دار ابن كثير
٢. محاضرات إسلامية في الفكر و الدعوة ، ج ٣ ، ص : ٢٢٩ - ٢٣٠
٣. ربانية لا رهبانية ، ص ١٠ - ١١
٤. محاضرات إسلامية في الفكر و الدعوة ، ج ٣ ، ص : ٢٣١
٥. ربانية لا رهبانية ، ص ١٤ - ١٥

وبهذه المناسبة يحلو لي أن أذكر نبذةً من تراجم العلماء الربانيين على مدى العصور حتى نتعرف على الربانية تعرفاً صحيحاً وترى لها تطبيقاً عملياً في معنى الكلمة ، وقد اعتمدت في التعرف بهؤلاء الربانيين على كتاب رجال الفكر والدعوة للإمام الندوي وساعة مع العارفين لفضيلة الأستاذ الدكتور سعيد الأعظمي الندوي حفظه الله .

الإمام أبو الحسن البصري شخصيته ومؤهلاته :

" ولد الإمام الحسن البصري سنة ٢١ هـ . وأبوه يسار مولى زيد بن ثابت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكاتب وحيه ، وأمه خيرة ، مولاة أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، إنه لقي جماعة كثيرة من الصحابة و سمع منهم ، وقدكان واسع العلم غزير المادة في التفسير والحديث ، وكان فصيحاً ومؤثراً في المجتمع ، يقول أبو عمر بن العلاء : مارأيت أفصح من الحسن البصري والحجاج بن يوسف ، والحسن أفصح من الحجاج، لقد قيضه الله تعالى بعد وفاة عمر بن عبد العزيز لنصرة دينه ولمواجهة الفساد والبدع والخرافات ، وذلك حينما نشأ الترف والفساد والفوضى في المجتمع ، وأصبحت هذه الأمة تتقدم إلى انهيار في الأخلاق والروح و ضعف في صلتها بالله بخطى واسعة ، وبما أنه كان من رجال الله وصاحب الفراسة العميقة ، الفراسة التي تحدث عنها النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً : " اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله " ، لقد عرف أنّ هذه الأمة مهددة بخطر هو أعظم من الأخطار السياسية وهو خطر المادية الجارفة، وقد نبأ بهذا الخبر لسان النبوة قبل حدوثه : " ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم " لذلك قام ليسدّ هذا السيل الجارف وبدأ بإصلاح الناس وتزكية القلوب ، وكان من سحر تأثيره في القلوب أنه كان صاحب عاطفة قوية ويعمل بما يعتقده ، وكانت مواعظه تدور حول قصر الحياة وغدر الدنيا وخلود الآخرة والحث على الإيمان ، وها أقدم مثالاً من هذه المواعظ : " هيهات هيهات ! أهلك الناس الأماني ، قول بلا عمل وإيمان بلا يقين ، ما لي أرى رجالاً ولا أرى عقولاً ، إنما دين أحد كم لعقة على لسانه إذا سئل أمؤمن أنت بيوم الحساب كذب و مالك يوم الدين ، إنّ من أخلاق المؤمن قوة في الدين ..... لا يلهو ولا

يلعب ولا يمشي بالنميمة ، المؤمن خاشع في صلاته لا يستعين إلا بالله ، حامد في الرخاء صابر على البلاء ، وهكذا كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وإنما غيربكم لما غيرتم (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ) (سورة الرعد : ١١)"[1]

الشيخ شرف الدين أحمد بن يحيى المنيري :

"ولد الشيخ شرف الدين أحمد بن يحيى المنيري سنة ٦٦١ هـ . في قرية "منير" من ضواحي بتنة عاصمة بهار الهند ، وأقبل على اكتساب العلم منذ نعومة أظفاره برغبة بالغة وهمّة عالية كأنه نذر أن يقضي أوقاته في سبيل العلم حتى يتحدث التاريخ عن اهتمامه بالعلم أنه لم يكن يقرأ تلك الرسائل التي كانت تتوجه إليه من بيته لكي لا تشوش باله وتحول دونه في الاجتهاد في العلم ولا يضطرب حاله بما يسمع من أخبار بيته ويقلق قلبه ثمّ وفقه الله أن يبايع الشيخ نجيب الدين الفردوسي ومن ساعته أجازه الشيخ دون أن يقضي معه وقتاً طويلاً ، وقال الشيخ : إن هذا الأمر ليس إلاّ من عند الله ، لم أفعله من عند نفسي وإنما هي إشارة غيبية أمرتني بذلك ورجع من عنده بأحوال معنوية كريمة ، وبدأ يكتب رسائل حول الإحسان والتزكية وإصلاح المجتمع ، وهذه الرسائل تشتمل على قدر كبير من نكات التصوف والإحسان والتزكية وحقائق الإنسان ، وهي لا تزال غرة في جبين المكتبة الإسلامية ، فيقول الأستاذ الكبير العلامة السيد أبو الحسن الحسني الندوي في كتابه " رجال الفكر والدعوة " وهو يتحدث عن هذه الرسائل : " إنّ كلّ ما كتبه حول عظمة الله وما يتعلق بالمؤمن المخلص وما يعيش فيه الربانيون من لوعة العشق وحرارة القلب إنما منشأ ذلك كله هو العرفان بأسرار الكون " ، وفي ما يلي نموذج من رسائله ، يقول في إحدى رسائله : يقول العارفون : والله ما من شيئ أحبّ إلى الله من بكاء العبد على حاله ، فيجب على العلماء والصلحاء أن يتعلموا البكاء من أويس القرني"[2]

---

١. راجع للتفصيل رجال الفكر والدعوة ، ص: ٦٣ - ١٨٨

راجع للتفصيل ساعة مع العارفين ، ص ٢٦ - ٢٤٢.

الإمام السرهندي مجدد الألف الثاني والعالم الرباني :

" ولد الإمام أحمد السرهندي المعروف بمجدد الألف الثاني في بداية القرن الحادي عشر ، بعثه الله ولياً عارفاً قد وصل إلى المعرفة درجة لايتصور وراءها ، ولولا هذا الشأن الذي ناله لم يفتخر به التاريخ الإسلامي، قد قام الشيخ السرهندي ضد أعظم الإمبراطور في عصره وهو أكبر بن همايون الذي كان أكبر ملوك في عصره ، وكان يعيث في الأرض فساداً ، فبدأ الشيخ أحمد في دفع هذا الخطر العظيم حتى خاف منه الملوك والأمراء فعذبوه بأنواع من التعذيب ولكنه صبر ولم يرض أبدا بخذلان الإسلام ، وما استطاع أن ترى عيناه أنّ كلمة الله تفقد عظمتها ومكانتها ، إنه كان يرى أنّه كان ملكاً ملحداً يرد الناس عن دينهم كما كان يرى أنّ بعض علماء السوء يوافقون الملك الجبّار على ما يقوله ويأمره ، ثقلت عليه هذه الأمور المهلكة وشغل فكره وبدأ لمبارزته ودعوته أسلوباً جذاباً رائعاً وهو طريق الرسائل التي كان يبعثها إلى كبار العلماء والوزراء ورجال الدولة فتأثر كثير منهم وبايعوه حينما رأوا كراهيته للدنيا وإقباله على الآخرة ، وكانت هذه الرسائل من أهم الوسائل للدعوة والإرشاد ولا تزال مصدراً للدعاة وهي في ثلاثة مجلدات كبار باللغة الفارسية ، يقول في إحدى رسائله : (وا حسرتاه وا حسرتاه ! إنّ اتباع محمد صلى الله عليه وسلم غرباء مهانون في بلادهم وأعداؤه مكرمون ، إنّ الباطل بارز منصور وإنّ الحقّ مخذول مستور) . وكان الشيخ شديد الحرص على اتباع السنة ، وكان يستيقظ كل ليلة منذ انتصافها ويشتغل بالنوافل والدعاء والتوبة ، كماكان يهتم بأداء حقوق العباد فيعود المرضى ويربي الأولاد والأهل ومريديه ، تربية حسنة ويقوم بالتدريس والفتيا ما يستفيد منه خلق كثير وكانت طريقته في التصوف " الجشتية " قوية التأثير جداً في أقصى نواحي العالم من الشرق إلى الغرب ولا تزال باقياً إلى اليوم."[1]

ورجال الفكر والدعوة للإمام الندوي . راجع للتفصيل ساعة مع العارفين ، ص ٧١ - ١٨٠.

الكلمة الأخيرة :

فأما في هذه الأيام فقد غاص الناس في بحر المدنية إلى آذانهم وشاع الفساد في كل ناحية من أنحاء العالم والناس يصلون ولا يتذوقون بصلاتهم ويتلون ولا يتلذذون ، وقد وردت كارثة عظيمة على جسد هذه الأمة كأنما فقدوا مفتاح قلوبهم ، المفتاح الذي يفتح القلب لدخول النور فيها ، وصارت بيوت قلوبنا فاسدة واهنة يوشك أن تهدم وتسقط ، فإذاً علينا أن نقوم بإصلاحها من جديد ونطهرها من أدناس الشرك و أنجاس الشك وقاذورات المعاصي بالاصلاح والتزكية ، وهذه أمور ضروريّة في العيش كما أن القرآن ذكرها كركن من الاركان التي بُعث الرسول صلى الله عليه وسلم لتحقيقها وتكميلها (هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ) (سورة الجمعة : ٢) ويقول المصلح الكبير الشيخ أبو الحسن النَدوي رحمه الله : " لا علاج لكل ذلك إلا في التزكية النبوية التي نطق بها القرآن وبعث لها الرسول صلى الله عليه وسلم وفي الربانية التي طولب بها العلماء ، (وَلَـٰكِن كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تَعْلِمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ) (سورة آل عمران: ٧٩) . فنحن نحتاج اليوم إلى رجل قوي الشخصية ، قوي الإيمان ، قوي العلم ، قوي التأثير كمثل الفضيل بن عياض ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، الشيخ شاه ولي الله الدهلوي ، و الإمام سيد أحمد الشهيد ، كي يجدد مرة أخرى دعوة الإيمان ويعيد إلى هذه الأمة الشباب والنشاط ويفتح باب البيعة والتوبة ويجدد العهد والميثاق ويماهد الناس على أن لا يشركوا ولايكفروا ولا يبتدعوا ولا يتركوا ما فرض الله ولا تفانوا في الدنيا ولا تناسوا الآخرة بل تعيشوا لله وتكونوا مخلصين له في جميع العبادات (مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً) (سورة الأحزاب : ٢٣) والحمدلله أولاً وآخراً وصلى الله عليه و على آله وأصحابه ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين .

★★★

الدعوة الإسلامية

الصوم صبر و الصبر صوم

بقلم : الشيخ الطاهر بدوي الجزائري

و الصوم يسمى صبراً لما فيه من حبس النفس عن الطعام والشراب و الشهوة ، ويسمى رمضان شهر الصبر لأنه شهر الصوم . و الصبر فضيلة تتعدد مجالاتها ، فهناك صبر على الطاعة أي استمساك بأدائها ، وصبر على المعصية أحرص موصول على تجنبها ، وصبر في الابتلاء أي حسن احتمال له ، فلابد للمؤمن من صبر على أداء الواجب و صبر عن الآثام والخطايا . وصبر يحفظ اللسان عن الخنا والفحش ، و صبر بحرص اللسان على النطق بكلمة الحق حينما تجب ، وصبر بصيانة القلب و العقل من خواطر السوء ، وصبر بحفظ الجوارح و الأعضاء من سوء الاستخدام ، وصبر عند الشدائد و النوازل ، وصبر في مواطن الجهاد والنضال والإقدام و الثبات وعدم الفرار أو التولي يوم الزحف إلخ ...

و الصبر لفظ عام ينتظم جملة فضائل وقد يسمى بأسماء كثيرة لكثرة مواطنه ومظاهره .. يقول الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله في هذا :

" إن كان صبراً على شهوة البطن و الفرج سمي عفة ، وإن كان عن احتمال مكروه اختلف أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذي غلب عليه الصبر ، فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر وتضاده حالة تسمى حالة الجزع و الهلع ، وهو إطلاق داعي الهوى يسترسل في رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها ، وإن كان في احتمال الغنى سمي ضبط النفس وتضاده حالة تسمى البطر ، وإن كان في حرب ومقاتلة سمى شجاعة ويضاده الجبن ، وإن كان في كظم الغيظ و الغضب سمي حلماً ويضاده التذمر ، وإن كان في نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمي سعة الصدر ويضاده الضجر و التبرم وضيق الصدر ، وان كان في إخفاء كلام سمي كتمان السر وسمي صاحبه كتوماً ، وان كان عن فضول العيش سمي زهداً ويضاده الحرص ، وان كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ويضاده الشره ، فأكثر أخلاق الإيمان داخلة في الصبر ولذلك لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة عن الإيمان قال: " هو الصبر " لأنه أكثر أعماله وأعزها .

وكثير من الناس يظنون أو يزعمون أن الصبر خلق سلبي وأن معناه الاستسلام والرضى بالواقع و الكف عن معالجة الأمور والاحتيال للخروج من الشدائد و الأزمات ، وهذا فهم خاطئ ووهم فاسد ، فالصبر كما يكون جهداً نفسياً للتأبي على المعاصي و الابتعاد عن السيئات ، ويكون في كثير من الأحيان جهداً عملياً إيجابياً ، فيه حركة وفيه سعيٌ ، وفيه إنتاج ، وفيه تحمل للتبعات وتعرض لجلائل الأعمال ومواقف الأبطال .

و الصبر لا يناقض الإحساس بالألم لأنه أمر طبيعي ليس معيباً ، وإنما المعيب هو الخضوع لهذا الأساس و الرضا به أو الاستجابة لداعيه الذي يفرق صاحبه في الجزع و الهوان ، و اللائق بصاحب الصبر أن يحاول كي يجعل صبره صبراً جميلا . و هو الصبر الذي لا شكوى معه ، وإن كان هناك شعور بالألم أو إحساس بالأذى ، ولذلك أمر الله تعالى رسوله الكريم بهذا اللون من الصبر ، فقال له في سورة المعارج : " فاصبر صبراً جميلا " وقد جاء في سورة يوسف حكاية عن سيدنا يعقوب عليه السلام : " قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل و الله المستعان على ما تصفون " الآية (١٨)

يتكرر ذكر الصبر في القرآن كثيراً ، ذلك أن الله سبحانه يعلم فخامة الجهد الذي تقتضيه الاستقامة على الطريق بين شتى النوازع والدوافع، والذي يقتضيه القيام على دعوة الله في الأرض بين شتى الصراعات والعقبات والذي يتطلب أن تبقى النفس مشدودة الأعصاب، مجندة القوى يقظة للمداخل و المخارج ..

ولابد من الصبر في هذا كله ..لابد من الصبر على الطاعات والصبر عن المعاصي والصبر على جهاد المشاقين لله والصبر على الكيد بشتى صنوفه، والصبر على بطء النصر والصبر على بعد الشقة ، والصبر على انتفاش الباطل والصبر على قلة الناصر والصبر على طول الطريق الشائك والصبر على التواء النفوس وضلال القلوب وثقلة العناد ومضاضة الإعراض، وحين يطول الأمد ، ويشق الجهد، قد يضعف الصبر أو ينفد ، إذا لم يكن هناك زاد ومدد ، ومن ثم يقرن الصلاة إلى الصبر ، فهي المعين الذي لا ينضب و الزاد الذي لا ينفد ، المعين الذي يجدد الطاقة ، والزاد الذي يزود القلب فيمتد حبل الصبر ولا ينقطع ، ثم يضيف إلى الصبر الرضى و البشاشة ،و الطمأنينة و الثقة و اليقين ، ومن ثم يوجه

الله المؤمنين هنا وهم على أبواب المشقات العظام إلى الصبر و الصلاة فيقول : " يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ، إن الله مع الصابرين " (البقرة /١٥٣) نعم إن الله مع الصابرين يؤيدهم ويثبتهم ويقويهم ويؤنسهم ، ولا يدعهم يقطعون الطريق وحدهم ولا يتركهم لطاقتهم المحدودة ، وقوتهم الضعيفة ، إنما يمدهم حين ينفد زادهم ، ويجدد عزيمتهم حين تطول بهم الطريق ...

و الحديث في الصبر كثيرة نذكر بعضها : " عن خباب بن الأرث رضي الله عنه قال : " شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة في ظل الكعبة ، فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال: " قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه ... و الله ليتمن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت فلا يخاف إلا الله ،و الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون " (أخرجه البخاري وأبو داود و النسائي) . وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : " كأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكى نبياً من الأنبياء عليهم السلام ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه وهو يقول : " اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " (رواه الشيخان) وفي حديث أخرجه الترمذي عن يحي بن وثاب ، عن شيخ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم " .

ولابد من تربية النفوس بالبلاء ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف و الشدائد وبالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات .. لابد من هذا البلاء ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة كي تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا في سبيلها من تكاليف و العقائد الرخيصة التي لا يؤدي أصحابها تكاليفها لا يعز عليهم التخلي عنها عند الصدمة الأولى . فالتكاليف هنا هي الثمن النفسي الذي تعز به العقيدة في نفوس أهلها قبل أن تعز في نفوس الآخرين .

وكلما تألموا في سبيلها وكلما بذلوا من أجلها ..كانت أعز عليهم وكانوا أضمن بها . كذلك لن يدرك الآخرون قيمتها إلا حين يرون ابتلاء

أهلها بها وصبرهم على بلائها ، إنهم عندئذ سيقولون في أنفسهم : لو لم يكن ما عند هؤلاء من العقيدة خيرا مما يبتلون به وأكبر ما قبلوا هذا البلاء و لا صبروا عليه، و عندئذ ينقلب المعارضون للعقيدة باحثين عنها، مقدرين لها ، مندفعين إليها . وعندئذ يجيء نصر الله و الفتح ويدخل الناس في دين الله أفواجا .

وعن هذا البلاء يقول جل ذكره في سورة البقرة : " **ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس و الثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** " الآيات (١٥٥،١٥٦،١٥٧).. وأهم من هذا كله أو القاعدة لهذا كله الالتجاء إلى الله وحده حين تهتز الأسناد كلها وتتوارى الأوهام وهي شتى ، ويخلو القلب إلى الله وحده لا يجد سنداً إلا سنده وفي هذه اللحظة فقط تنجلي الغشاوات وتتفتح البصيرة وينجلي الأفق على مد البصر ، لاشيء إلا الله لا قوة إلا قوته لا حول إلا حوله لا إرادة إلا إرادته لا ملجأ منه إلا إليه ، وعندئذ تلتقي الروح بالحقيقة الواحدة التي يقوم عليها تصور صحيح ... هؤلاء هم الصابرون الذين يبلغهم الرسول الكريم بالبشرى من المنعم الجليل وهؤلاء هم الذين يعلن المنعم الجليل مكانهم عنده جزاء الصبر الجميل .

و القرآن المجيد يحدثنا بأن الصبر صفة الأنبياء و المرسلين عليهم الصلاة و السلام فهو يقول في سورة " ص " عن أيوب : " **إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أوّاب** " . ويقول في سورة الأنبياء : " **وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين** " .

ويقول في سورة يونس مخاطباً سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم:
" **واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين**"
ويقول في سورة الأحقاف مخاطبا إياه أيضا : " **فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل** " وفي سورة الأنعام يقول سبحانه : " **ولقد كُذِّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كُذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا، ولا مبدل لكلمات الله** " الآية(٣٤).كلمات من الحق جل جلاله لنبيه الكريم للذكرى وللتسرية و المواساة و التأسية .. وهي ترسم للدعاة إلى الله من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم طريقهم واضحاً ودورهم محددا ، كما ترسم لهم متاعب الطريق وعقباته ثم ما ينتظرهم بعد ذلك كله في

نهاية الطريق .

إنها تعلمهم أن سنة الله في الدعوات واحدة ، كما أنها كذلك وحدة ، وحدة لا تتجزأ ، دعوة تتلقاها الكثرة بالتكذيب ، وتتلقى أصحابها بالأذى ، وصبر من الدعاة على التكذيب وصبر كذلك على الأذى ، وسنة تجرى بالنصر في النهاية ولكنها تجيء في موعدها . لا يعجلها عن هذا الموعد أن الدعاة الأبرياء الطيبين المخلصين يتلقون الأذى والتكذيب ، ولا أن المجرمين الضالين و المضلين يقدرون على أذى المخلصين الأبرياء الطيبين ، ولا يعجلها كذلك عن موعدها أن صاحب الدعوة المخلص المتجرد من ذاته ومن شهواته ، إنما يرغب في هداية قومه حباً في هدايتهم ويأسى على ما هم فيه من ضلال وشقوة وعلى ما ينتظرهم من دمار وعذاب في الدنيا و الآخرة .. لا يعجلها عن موعدها شيء من هذا كله فإن لا يعجل بعجلة أحد من خلقه " **ولا مبدل لكلمات الله** " سواء تعلقت هذه الكلمات بالنصر المحتوم لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :" **واعلم أن النصر مع الصبر** " أم تعلقت بالأجل المرسوم .

فالصبر خلق أهل العزيمة القوية وأصحاب الإرادة الماضية الذين يعرفون الخير ويعزمون عليه ويمضون فيه لا ينثنون عنه مهما كلفهم من تعب أو مشقة ومن هنا جعل القرآن الصبر من " **عزم الأمور** " والعزم هو عقد القلب على إمضاء الأمر ، وهو أيضا المحافظة على ما يؤمر الإنسان به .. قال تعالى في سورة الشورى : " **و لمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور**" الآية (٤٣) و في سورة لقمان قال : " **واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور** " الآية (١٧) .

وفي سورة آل عمران : " **وان تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور**" الآية (١٨٦) .

ويعلق الأستاذ الشيخ محمد عبده على هذه الآية فيقول رحمه الله: " الصبر هو تلقي المكروه بالاحتمال وكظم النفس عليه مع الروية في دفعه ومقاومة ما يحدثه من الجزع فهو مركب من أمرين : دفع الجزع ومحاولة طرده ، ثم مقاومة أثره حتى لا يغلب على النفس ، وإنما يكون ذلك مع الإحساس بألم المكروه .فمن لا يحس لا يسمى صابراً ، وإنما فاقد الإحساس يسمى بليداً ، وفرق بين الصبر و البلادة .

فالصبر وسط بين الجزع و البلادة ، وما أحسن قرن التقوى بالصبر

في هذه الموعظة وهي أن يمتثل ما هدى الله إليه فعلا وتركاً ، عن باعث القلب ، و ذلك من عزم الأمور أي التي يجب أن تعقد عليها العزيمة، و تصح فيها النية وجوباً محتماً لا ضعف فيه " .

ولما كان الصبر بهذه المنزلة جعل الله تعالى جزاءه عظيماً جليلا غير محدود ولا ممنون قال تعالى : " **إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** " (الزمر/١٠) .

والإنسان يمكنه أن يعرف طريقه إلى فضيلة الصبر باستعانته بالله في تعوده الصبر واستمساكه به ، وهذا هو الصبر بالله على حد تعبير أحد الرجال الكاملين العارفين بالله المستمدة من قوله تعالى في آخر سورة النحل : " **واصبر وما صبرك إلا بالله** " الآية (١٢٧) فهو سبحانه وتعالى يهب عبده نعمة الصبر إذا عاناه الإنسان وحاول التزين به ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " **من يتصبر يصبره الله** " ومن ازدان بالصبر حق الصبر واستكمله في نفسه عرف الطريق إلى مكانة الإمامة. فقد قال ابن تيمية رحمه الله : " **بالصبر و اليقين تنال الإمامة في الدين** " . ثم تلا قوله تعالى في سورة السجدة : " **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون** " .

واعلم أن الذي انزل الداء انزل الدواء ووعد بالشفاء , فالصبر وان كان شاقا فتحصيله ممكن بمعجون العلم و العمل كما قال الإمام أحمد ابن قدامة المقدسي فمنهما تركب الأدوية لأمراض القلوب كلها , فيحتاج كل مريض إلى علم وعمل يليق به . فإن العلل إذا اختلفت اختلف العلاج ,إذ معنى العلاج مضادة العلة . ويضرب لنا مثلا فيقول رحمه الله : "إذا افتقر الإنسان إلى الصبر عن شهوة الجماع وقد غلبت عليه بحيث لا يملك فرجه ولا عينه ولا قلبه فعلاج ذلك بثلاثة أشياء :

أحدها : مواظبة الصوم ، و الاقتصار عند الإفطار على قليل الطعام .

الثاني : قطع أسبابه المهيجة ، فإنه إنما يهيج بالنظر ، والنظر بالقلب والقلب يحرك الشهوة ، ودواء هذه ، العزلة ، و الإحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة ، فإن النظر سهم مسموم من سهام إبليس ولا يمنع عنه إلا غض الجفن أو الهرب .

الثالث : تسلية النفس بالمباح من جنس المشتهى وذلك بالنكاح ، وكل ما يشتهيه الطبع من الحرام ففي المباحات غنية عنه وهذا هو العلاج

الأرفع في حق أكثر الناس لان قطع الغذاء يضعف ولا يقمع الشهوة بخلاف هذا ، وينبغي للإنسان أن يعود نفسه المجاهدة فإن من عود نفسه مخالفة الهوى غلبها متى أراد " . واعلم أن أشد أنواع الصبر والمجاهدة ، كف الباطن من حديث النفس وإنما يشتد ذلك على من تفرغ واعتزل ، فإن الوساوس لا تزال تجاذبه ، ولا علاج لهذا إلا قطع العلائق ، وجعل الهم هماً واحداً ، وصرف الفكر إلي ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله تعالى ، وجميع أبواب معرفة الله تعالى ، حتى إذا استولى ذلك على قلبه ، دفع اشتغاله مجاذبة الشيطان ووساوسه ، وإن لم يكن له سير الباطن فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة من القراءة و الأذكار والصلوات ، ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور فإن الفكر الباطن هو الذي يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة فهذا الذي يمكن أن ينال بالاكتساب والجهد.

فأما مقادير ما ينكشف ، ومبالغ ما يرد من لطف الله تعالى من الأحوال و الأعمال فذلك يجري مجرى الصيد ، وهو بحسب الرزق فقد يقل الجهد ويكثر الصيد ، وقد يطول الجهد ويقل الصيد ، و المعول وراء هذا الاجتهاد على جذبه من جذبات الرحمن عز وجل فإنها توازي أعمال الثقلين ، وليس ذلك إلي اختيار العبد بل اختياره أن يتعرض لتلك الجذبة بأن يقلع عن قلبه جواذب الدنيا . فإن المجذوب إلى أسفل سافلين لا يجذب إلى أعلى علين ، وكل منهوم بالدنيا هو منجذب إليها فقطع العلائق الجاذبة هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم في حديث أخرجه الطبراني : " إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها " . فعلينا إذاً تفريغ المحل و الانتظار لنزول رحمة الله تعالى عليه .. فإذا طهر العبد قلبه من حشيش الشهوات وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص وعرضه لهاب رياح الرحمة حق له أن ينتظر تلك النفحات في الأوقات الشريفة وعند اجتماع الهمم ونشاط القلوب كيوم عرفة ويوم الجمعة وفي رمضان ونحن بصدد هذه الشهر الكريم .. فلا تفوتنا نفحاته وبركاته .. و الهمم و الأنفاس أسباب لاستدرار رحمة الله تعالى بحكمته وتقديره .

اللهم هب لنا نعمتي الحلم و الصبر بك و لك ، واجعلنا من الصائمين القائمين إيماناً و احتساباً برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه و التابعين .

عناية الإسلام بالأخلاقية الفاضلة

الدكتور ك . ت . شكيب[1]

الإسلام ؛ الدين الطبيعي قد اشتهر بوجهاته المرموقة ونظرياته الفاضلة في الأخلاقية المحمودة ، كما أنه يحث الناس على حسن الخلق والتسامح والمحبة والدعوة إليه . ومع هذا فإن الإسلام يعرّف المحمودات ويحث على انتشارها بين المجتمع المتضمن بالإنسان والكائنات الحية المجموعة . فالإنسان يجب أن يكون متمسكاً بالأخلاقية لسائر المخلوقات بميزته العقلية وفطرته السليمة الهادية إلى الخير والحسنات ، إن الإنسان مولود بنفس صافية وسلوك زكي ، ومتّصف بالأخلاقية الحسنة ، ومطمئن بالسير المحمودة .

الخلق في نظر الإسلام هو سجية الإنسان وطبيعته التي خُلق عليها ويعيش فيها ، ويلتقط منها ما يحتاج من الآداب السلوكية والمعايير الفكرية والعقلية ، وبها تتوافر سيرها الذاتية وأفكارها الشخصية ملائمة لثقافة المجتمع وحضارته ، و هي الوعي الإنساني والمضمون السلوكي والأصل الثقافي يتدرب الأشخاص والشعوب حسب إرشاداته والتمرّن به إلى مستوى الآداب والثقافة .

فالخلق هو صفة راسخة في النفس ، تدعوها إلى فعل الخير أو الشرّ كالشجاعة والجبن والظلم والعدل والكرم والبخل وغيرها . وبهذه الصفة يمتاز الإنسان عن سائر المخلوقات ، لأن ما سوى الإنسان لا يدرك قيمة هذه الصفة ولا يهتمّ بها ، بل لم يؤهله الله تعالى للتحلي بها . ومن هنا صحّ القول " إن الأخلاق هي قيمة إنسانية " .

وجمعها الأخلاق ، يعني بها طريقة سلوك الإنسان إما إلى الحسنة أو السيئة ، فتنتسب إليه الحسنة والسيئة أو مشتقاتهما أو مشابهاتهما

---

[1] أستاذ مساعد ، قسم اللغة العربية بكلية أنوار الإسلام العربية للبنات. مونفام، كيرالا – الهند.

المتعددة . فالأخلاق إذا كانت محمودة فتعتبر الأخلاق فاضلة ، وإذا كانت عكسها فتعتبر الأخلاق قبيحة . فالموجز أن الأخلاق لها وجهان – الحسنة والسيئة – وفق أغراضها للأفراد والمجتمع .

وعرّفه الجرجاني : الخلق عبارة عن هيئة النفس الراسخة ، تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر بغير حاجة إلى الفكرة والروية ، فإن كانت الهيئة حسنة تصدر عنها الآداب الحسنة والأفعال الممدوحة ، وإلا تكون في سوء الهيئة فتتبع عنها السيئات والفواحش . فهي هيئة راسخة حيث تعين الإجراءات الظاهرة عنها بأن تكون موافقة بأحوالها الداخلية ، فتجدر أن تستقيم بحالها الحسنة المتوافرة.[1]

والخلق بالمعنى اللغوي هو الدين والطبع والعريكة ومثلها . ويقول ابن منظور " الخلق هو الدين والطبع والسجية "[2]، ويؤيّده قول ابن عباس : " إنك لعلى خلق عظيم " معناه " إنك على دين عظيم "،[3] أي وهو الإسلام " . ويبيّنه مجاهد بقوله : الخلق هو الدين ، مستدلا بعائشة رضي الله عنها التي قالت عن خلق الرسول صلى الله عليه وسلم : " فإن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن "[4]؛ أي الدين . ويؤكد الفيروزابادي : " اعلم أن الدين كلّه خلق ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين "[5].

وبالمعنى الاصطلاحي ، " عقيدة أخلاقية منبثقة من البحث

---

١ الجرجاني، الفاضل العلاّمة عليّ بن محمد الشريف؛ *كتاب التعريفات*، مكتبة لبنان، بيروت (١٩٨٥). ص: ١٠٦

٢ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم؛ *لسان العرب*، دار صادر، بيروت (١٩٩٠). ص: ٨٨٩/١

٣ الرازي، الإمام محمد فخر الدين؛ *التفسير الكبير ومفاتيح الغيب*، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت (١٩٨٥). ص: ٨١/١٥

٤ ابن كثير، الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل الدمشقي؛ **تفسير القرآن العظيم**، دار الفتح للطباعة والنشر والتوزيع، (١٩٩٩). ص: ٢٤٤/٨

٥ الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب؛ *بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز* (تحقيق: الأستاذ محمد علي النجار) المكتبة العلمية، بيروت (١٩٦٤). ص:٥٦٨/٢

الفلسفي في الأخلاق "[1]، أو "هو حال النفس الإنساني ومعيار السيرة الأدبية والسلوك الطبيعي والآداب الاشتراكية ، حيث يدبّر أفعاله ويرتب سيره وسلوكه بلا رؤية ولا اختيار . فيوجد بعض الخلق غريزة وطبعاً ، وبعضها بالتدريب والاجتهاد "[2]. وتكون أكثر الأخلاقيات طبيعية محضة بدون الرياضية ولا التدريبية كما يوجد الشجاعة والحلم والعفة الجنسية والعدل وغير ذلك من الأخلاقيات .

فالخلق بمقتضى المعاني اللغوية والاصطلاحية ، هو سجية وطبيعة بطرفيها المهمين : إما الحسنة أو السيئة ، والعادة والطبيعة والدين والمريكة والصفة المستقرة في النفس التي تتأثر في سلوك الفرد والمجتمع إن كانت محمودة أو مذمومة . وجمعه (الخلق) الأخلاق الذي يعني بها " طبع ، وسجية عريكة ، وطريقة تصرُّف يتميّز بها الإنسان "[3].

والأخلاقية (Morality) هي الطريقة السلوكية التي يمتاز بها سلوك النوايا والقرارات والإجراءات بين الخير والشر أو الحق والباطل ، فتتغير الأخلاقية حينما تتغير الأعراف والعادات والطرائق . كما يعرّفها قاموس أوكسفورد الإنكليزي بأنها " هي الآداب الأخلاقية المتصلة والفضيلة المعينة والقواعد السلوكية الصحيحة "[4]، أو يبيّنها قاموس لونغمان الانجليزية " هو الوعي والفكرة حول الصواب والخطأ "[5].

فالأخلاقية هي النظام السلوكي المحمود والآداب الفاضلة

---

١ أنطوان نعمة، وعصام مدوّر، ولويس عجيل، ومتري شمّاس (محرّر)؛ *المنجد في اللغة العربية المعاصرة*، دار المشرق، بيروت، لبنان (٢٠٠٠). ص: ٤١٩

٢ فخري، ماجد (د/.)؛ *الفكر الأخلاقي العربي*، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت (١٩٧٨). ص:٢/٨٩

٣ أنطوان نعمة، وعصام مدوّر، ولويس عجيل، ومتري شمّاس (محرّر)؛ *المنجد في اللغة العربية المعاصرة*، دار المشرق، بيروت، لبنان (٢٠٠٠). ص: ٤١٨

٤ Hornby, A.S.; ***Oxford Advanced Learner's Dictionary of Current English***, (8th Edition) Oxford University Press, New York (2010). P: 994

٥ Bullon, Stephen.; ***LONGMAN- Dictionary of Contemporary English***, Pearson Education Limited, England (2004). P: 1067

والصفات المقبولة بمعظم الناس في المجتمع أو جمهورهم ، فتفترق الأخلاقية حسب المجتمع ويتغير مضمونها ورموزها وفق الآداب السلوكية فيهم . فمثلا ، إن العلاقة الجنسية قبل الزواج واللواط والسحاق (Lesbianism) مقرّرة ومحافظة ، كما أن تناول المخدّرات والخمور وتوزيعها وتدمينها أصبحت حضارة اجتماعية في بعض البلدان .

ولكن وفق المنهج الأخلاقي الجديد فإن هذه كلها مردودة ومضرّة لكافة المجتمع ، لا بدّ أن يتجنبها الإنسان ، ولذا قد أكد العلماء بأن الأخلاقية هي ما تفيد وتنفع الإنسان بينهم والمخلوقات الأخرى وما تضرّ الإنسان ، وهذه الحيوانات لا تعني بكلمة الأخلاقية . وقد وزّعت الأخلاقية حسب المدلولات بها إلى المعنى الوصفي والمعنى المعياري .

والأخلاقية بالمعنى الوصفي (Descriptive Sense) هي القيم الشخصية والمدلولات الثقافية والمدوّنات الخيرية بقواعد السلوك والعادات الاجتماعية التي تفرّق بين الحق والباطل في الكائنات الحيّة . وإنها لا تعين الصواب والخطأ مباشرة ، لكن يشير إلى النظريات فحسب على أساس المنفعة والمضرة خلال الممارسة به والمنفعة لمن يقيمها .

والأخلاقية بالمعنى المعياري (Normative Sense) ، يدل مباشرة على الصواب والخطأ ، كما تعرف بأنها السلوك الشخصي المعنوي المثالي في حالة متوافرة . ويتميز بها التوازن بين الإجراءات الأخلاقية أو غيرها . ففالبا أن الأخلاقية تقيم ضدّ مواجهات التشكيك الأخلاقي الذي رفض وجمد الأخلاقية الموضوعية .

وفي العصر الراهن ، قد يولع الإنسان خصوصا الشباب بالمشاغل والملاهي ويقعون في المشاكل والتوترات النفسية ، فيتناولون المخدرات والخمور أو يقبلون على الانتحار أو القتل أو الجرائم الجنسية حلاّ لها ، هنا طبيعته المؤسفة تسيطر عليه تقوده إلى ارتكاب الفواحش والرذائل . فالحل الوحيد هو تنقية النفوس التي تؤديه إلى المنافع المحمودة وتحثه على القبائح المذمومة .

الإسلام - رسالة الأخلاقية المحمودة

الإسلام يعتبر سنداً للأخلاق الفاضلة كما يصرح بتطهير القلوب وتجنب الرذائل ما ظهر منها وما بطن ، والقلب هو أساس الأعمال

ومبدؤها من حيث تتبع الأعمال المتعددة منه ، الحسنة أو السيئة .

وتتحول الأنشطة حسب أحوال القلب من حيث إنها تعين الأعمال بطريق العاقبة ومدلولاتها حسنة كانت أو سيئة ، وتجري أعمال الخير عن القلب إن كانت مطهرة وإلا تتبع منه الفواحش . ولذا تتطلب كلّ الاتجاهات المعاصرة تطهير النفوس وتنقية القلوب لأن الأعمال تجري بمعاييرها ؛ إن كانت مطهرة فالأعمال خيرة وإلا فضرر .

والإسلام يحثّ على تنقية القلوب من حيث إنها تبعث الأعمال حسب أحوالها الخير أو الشرّ ، فإن القلب هو منظر الخالق سبحانه للثواب والعقاب كما يروى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم "[1]. وهنا يؤكد أن القلوب والأعمال تجريان متماسكين معاً ، إذا كان القلب نقياً فالأعمال محمودة وإلا يفشل القلب والعمل معاً .

قال ابن تيمية : " إن الله لا ينظر عبداً بمجرَّد الجمال في الصور والثياب، ولكن ينظر إلى القلوب والأعمال ، فإن كان الظاهر مزيَّنا مجمَّلا بحال الباطن فأحبه الله ، وإن كان مقبَّحاً مدنساً بقبح الباطن أبغضه الله ، فإنه سبحانه يحب الحسن الجميل ويبغض السيئ الفاحش "[2].

فالجمال ينقسم إلى باطن وظاهر ، فالجمال الباطن هو المحبوب لذاته ، وهو جمال العلم والعقل والجود والعفّة والشجاعة ، وهذا الجمال الباطن يزيِّن الصورة الظاهرة للفرد ، فتكسو به الجمال والمهابة والحلاوة حسب ما اكتسبت روحُه من تلك الصفات . فالمؤمن يعطى مهابة وحلاوة بإيمانه ، فمن رآه هابه ومن خالطه أحبَّه .

وأما الجمال فقد خص الله تعالى نفسه بزيادة الجمال ، وقد يبرز بزينة الصوت الحسن والشكل البدني والسلوك الخير والعادات الممدوحة والمحبوبة كما هي مفطورة على العادة . ومن صورها الظاهرة صدق الحديث وأداء الأمانة وبرّ الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر

---

[1] المسلم، الإمام الحافظ أبو الحسين، *صحيح مسلم*، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض (٢٠٠٦). كتاب البر والصلة والآداب، رقم الحديث:٢٥٦٣، ص: ١١٩٣/٢

[2] ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام؛ *الاستقامة*، دار الحديث، (٢٠٠٥). ص:١١٨

بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد الكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والدعاء والذكر وقراءة الأوراد وطلب العلم وتعليمه .

فلذا دعا الرسل كلّهم إلى تزكية النفوس وتهذيب الأخلاق وكان ذلك من أمانتهم المهمة فعنوا بإقامتها في قومهم عناية فائقة كما قال تعالى : (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنْكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ) ،[1] وكذلك قال تعالى : (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)[2].

ويفسرها ابن سعدي : (وَيُزَكِّيكُمْ) أي : يطهر أخلاقكم ونفوسكم ، بتربيتها على الأخلاق الجميلة ، وتبعدها عن الأخلاق الرذيلة ، وذلك كتزكيتهم من الرياء إلى الإخلاص ، والكذب إلى الصدق ، والخيانة إلى الأمانة ، والكبر إلى التواضع ، وسوء الخلق إلى حسن الخلق ، والتباغض والتهاجر والتقاطع إلى التحابّ والتواصل والتوادد ، وغير ذلك من أنواع التزكية[3].

قال ابن كثير : ويذكّر تعالى عبادَه المؤمنين ما أنعم عليهم من بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إليهم ، يتلو عليهم آيات الله المبينات ، ويزكيهم أي : يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر لتزكو نفوسهم وتطهر من الدنس والخبث[4].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان خلق نبي الله صلى الله

---

١ القرآن الكريم، سورة البقرة. الآية: ١٥١

٢ القرآن الكريم، سورة آل عمران. الآية: ١٦٤

٣ السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله (١٣٧٦هـ)؛ *تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان*، (المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق) مؤسّسة الرسالة، (٢٠٠٠). ص: ١/٧٣

٤ ابن كثير، الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل الدمشقي؛ تفسير القرآن العظيم، دار الفتح للطباعة والنشر والتوزيع، (١٩٩٩). ص: ٢/٢٠٤

عليه وسلم القرآن[1]. يعني به أنه يتأدب بآدابه ، فيفعل أوامره ويتجنب نواهيه ، فصار العمل بالقرآن له خلقا كالجبلة والطبيعة لا يفارقه ، وهذا أحسن الأخلاق وأشرفها وأجملها .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق " ، قال ابن عبد البر : ويدخل في هذا المعنى الصلاح والخير كلّه ، والدين والفضل والمروءة والإحسان والعدل ، فبذلك بعث ليتمّمه صلى الله عليه وسلم . وقد قال العلماء : إن أجمع آية للبر والفضل ومكارم الأخلاق قوله عز وجل : (إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَآءِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)[2].

فإن تزكية النفوس معهودة إلى الرسل والأنبياء ، وإنما بعثوا لهذه التزكية والتطهير من الرذائل الفاحشة ، وجُعل ذلك على أيديهم دعوةً وتعليماً وبياناً وإرشاداً لا خلقا ولا إلهاما ، فهم المبعوثون والمسؤولون عن علاج نفوس الأمم البشرية .

ولذا تركز الأوامر الإسلامية والإرشادات كلّها على الترغيب في الأخلاق الفاضلة والترهيب عن الفواحش ، والإسلام يبدأ بالتشجيع على القراءة وتنظيف القلوب وتنقية النفوس ، فيأمر بالمراجعة والوضوء والصلاة والزكاة ، وهذه كلّها لتطهير النفس والبدن والقلب والمال وما إلى ذلك . ويبرز هذه الأغراض المهمة من أوامره الفعالة .

وقال المناوي : إن من أحبكم إليّ أحسنكم أخلاقاً ، أي : أكثركم حسنَ خلق ، وهو اختيار الفضائل وترك الرذائل ؛ وذلك لأن حسن الخلق يحمل على التنزه عن الذنوب والعيوب ، والتحلي بمكارم الأخلاق من الصدق في المقال والتلطف في الأحوال والأفعال وحسن المعاملة مع الرحمن والعشرة مع الإخوان وطلاقة الوجه وصلة الرحم والسخاء

---

[1] الإمام يحيى بن شرف؛ *رياض الصالحين*، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت (١٩٩٦). ص: ٦٢٤

[2] القرآن الكريم، سورة النحل. الآية: ٩٠

والشجاعة وغير ذلك !

وعن النواس بن سمعان الأنصاري رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم ، فقال : " البرّ حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس[2] " . وقال السيوطي : " البر حسن الخلق" أي : يطلق على الصلة والصدق والمبرة واللطف وحسن الصحبة والعشرة والطاعة ، فإن البرّ يطلّق على كلّ مما ذكر ، وهي مجامع حسن الخلق[3].

ونرى الإسلام قد ارتبطت جوانبه برباط أخلاقي لتحقيق غايته الأخلاقية ، فيؤكد أن الأخلاق هي روح الإسلام ، والنظام التشريعي الإسلامي هو صورة مجسمة لهذه الروح الأخلاقية . ومهمة الدين هي تنظيم الحياة الإنسانية ووضع الضوابط الإلهية التي تحفظ للإنسان ضرورياته وتساعده على تحقيق حاجياته وكمالياته . فالإنسان لا يستطيع السير بدون قدرة إلهية وهدى رباني يوجهه حيث يكون الصلاح والفلاح .

فالأخلاقية الفاضلة هي روح الدين وأصله المتين وجوهره العريق ، وغاية الأديان المهمّة هي تهذيب الإنسان وصبغ نفوسهم بصبغة صافية بما يعكس على واقعه في أفضل صور الرحمة والشفقة والعطف والمحبة للناس . ولا يوجد مجتمع متفاضل إلا بالاضطلاع بهذه الفضائل المهمّة والأخلاق المحمودة .

واهتم الإسلام الحنيف اهتماماً بالغاً بالأخلاقية والسلوك ، وأعلن المساواة الإنسانية مؤكدة على معاملة الناس بالعدل دون التمييز بالدين واللون والجنس . ومن أجل ذلك كان الإسلام خاتماً للأديان ومتمّماً لمكارم الأخلاق المحضة ، كما ورد في حديث الرسول صلى الله عليه

---

[1] المناوي، عبد الرؤوف؛ *فيض القدير شرح الجامع الصغير*، المكتبة التجارية الكبرى، مصر (١٣٥٦هـ). ص: ٥٢٩/٢

[2] المسلم، الإمام الحافظ أبو الحسين، *صحيح مسلم*، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض (٢٠٠٦). كتاب البرّ والصلة والآداب، رقم الحديث:٢٥٥٣، ص: ١١٩٠/٢

[3] جلال الدين السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر؛ *الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج*، دار ابن عفان للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية (١٩٩٦). ص: ٥٠٠/٥

وسلم : "أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخُن من خانك" [1]، وكما جاء في خطبته في حجة الوداع "أيها الناس! إن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء ؛ كلّكم لآدم وآدم من تراب ، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى" [2] تدميرا للقومية والعرقية بين الناس .

وقد ركز القرآن على نفس المعالم الأخلاقية التي جاءت في التوراة . فبعض الوصايا التي وردت في التوراة تكرر ورودها في القرآن الكريم ، من ذلك : لا تقتل ، في التوراة يقابلها في القرآن : (وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ)[3]. لا تزنِ ، في التوراة يقابلها في القرآن (وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً)[4]. وقد وردت في التوراة وصية لا تسرق ، يقابلها في القرآن (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا)[5]. وورد في التوراة لا تشهد على قريبك شهادة الزور ، يقابلها في القرآن (وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ)[6].

وكذلك الوصايا الواردة في الإنجيل توجد في القرآن أيضا . ومنها ما ورد في الإنجيل " قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن ، وأما أنا فأقول لكم إن كلّ من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه "[7]، يقابلها في القرآن (قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ، وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ . . .)[8] . وكذلك ورد في الإنجيل " اسألوا

---

[1] أبو داود، الحافظ سليمان بن الأشعّة السجستاني؛ *سنن ابي داود*، دار الجنان للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان (١٩٨٨). كتاب البيوع، رقم الحديث:٣٥٣٥، ص:٣١٣

[2] علي الصغير، محمد حسين (د/.)؛ *الإمام علي عليه السلام - سيرته وقيادته في ضوء المنهج التحليلي*، مؤسّسه العارف للمطبوعات الطبعة، (٢٠٠٢). ص: ٣١٨

[3] القرآن الكريم، سورة النساء. الآية: ٢٩

[4] القرآن الكريم، سورة الإسراء. الآية: ٣٢

[5] القرآن الكريم، سورة المائدة. الآية: ٣٨

[6] القرآن الكريم، سورة الحج. الآية: ٣٠

[7] *الكتاب المقدّس، العهد الجديد، إنجيل* (متّى): ٢٧٥- ٢٩٠

[8] القرآن الكريم، سورة النور. الآية: ٣٠- ٣١

تُعطوا "[1]، يقابلها في القرآن (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ .....)[2].

ولكن زاد القرآن على ما ورد في التوراة المحرَّفة ، خاصة على القضايا المميزة بين اليهودي وغير اليهودي . كما ورد في التوراة : " للأجنبي تقرض بربا ، ولكن لأخيك لا تقرض بربا " ، وقد أسقطت النصرانية واستبدلت به مبدأ ، فجاء القرآن بمعيار آخر لما ورد في التوراة والإنجيل ؛ وذلك مبدأ المساواة لجميع الناس في التعامل الأخلاقي مع المسلم وغير المسلم ، لأن العبرة تتضمن إنسانية الإنسان وليست دينه أو عرقه ، كما قال : (وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)[3]. فكان هذا المبدأ ناسخًا لما ورد في التوراة والإنجيل ومذيبًا للفوارق والحواجز بين بني آدم .

ونرى الفارق بين الاعتقادات الحديثة الدينية وغير الدينية في المعاملات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، وتوضح المفارقة مبيّنة بين المنهج الأخلاقي وغير الأخلاقي . فمثلا أن الماركسية تؤسس فرضياتها وتبني نظرياتها في تفسير التاريخ وتغيير المجتمع مدعية أنها نظرية علمية . وبذلك تلغي الدين والأخلاق بداية لأنهما ليسا من العلم ، وتنطلق في بناء المجتمع بقاعدة على أن الحياة مادة فقط ، فلا روح ولا دين ولا أخلاق ، وأدت بهم إلى هذه المقدمات بعدم الأخلاقية الحسنة .

الشيوعية كانت تدعي المساواة الإنسانية ، ولكن كذب أتباعها بل جهلوا طبيعة الوجود الإنساني على تنوع القدرات ، واختلاف الدرجات لاستقامة الحياة وانتفاع الناس بعضهم ببعض غنيهم بفقيرهم وفقيرهم بغنيهم ، ويستعين كلّ فريق من الآخر لتحقيق مقاصده ، ولو كانوا متساوين في كلّ شيء لما أمكن شيء من ذلك ولفسدت الحياة البشرية واختل نظام المجتمع الإنساني .

وإلى هذا أشار الله تعالى في محكم كتابه فقال : (نَحْنُ قَسَمْنَا

---

١ *الكتاب المقدّس، العهد الجديد، إنجيل* (متّى): متّى ٧- ٧

٢ القرآن الكريم، سورة البقرة. الآية: ١٨٦

٣ القرآن الكريم، سورة المائدة. الآية: ٨

بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيًّا) .[1] والشيوعية كانت تمرّ على أجساد الأطفال والنساء والشيوخ ، فسقطت الشيوعية على أشلاء سدنتها ، لأنها كانت ضدّ الفطرة الإنسانية وضدّ الأخلاق والدين .

فتأيّدت تعاليم " الأخلاقية الإسلامية " كما وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة على لسان النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ، كان يجسدها في أفعاله وسلوكه مع الآخرين ، فقال تعالى : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)،[2] وأكّد النبي صلى الله عليه وسلم على أن تقويم التعاليم الأخلاقية هو الفرض الأساسي لبعثته حيث يعلنه بقوله : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق "[3]، وتؤكد الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة على أن حسن الخلق سبب لرقى الإنسان إلى ذروة الكمال في الدنيا ودخول الفرد إلى الجنة في الآخرة[4].

وكانت قريش قبل الإسلام تصف الرسول صلى الله عليه وسلم بالأمين بصفته الأخلاقية وغيرها من الصفات الكريمة ، وها هي التي أحلت الرسول صلى الله عليه وسلم لحمل الرسالة . وإن هذه الرسالة الأخلاقية لا يحملها إلا إنسان ذو خلق عظيم وصفات كريمة ، والذي لا يحمل أخلاقاً حسنةً لا يصلح لحمل الرسالة الإسلامية . وقد وردت أحاديث عديدة عنه تجعل كمال الإيمان في حسن الخلق . كما ورد عن مصعب بن سلام ، جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله : أيّ الناس خير؟ قال : " أحسنهم خلقا "[5].

---

[1] **القرآن الكريم**، سورة الزخرف. الآية: ٣٢

[2] **القرآن الكريم**، سورة القلم. الآية: ٤

[3] الريشهري، محمد (١٤٢٣هـ)؛ *منتخب ميزان الحكمة*، (تلخيص: السيد حميد الحسيني)، دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع، قم (٢٠٠٠). ص: ١٧٠

[4] القمّي، الشيخ عباس؛ *خمسون درساً في الأخلاق*، (تحقيق: نزار الحسن) مؤسّسة عاشوراء، (٢٠٠٥). ص: ٥

[5] أحمد بن محمد بن حنبل؛ *المسند*، دار الحديث، القاهرة (١٩٩٥). رقم الحديث: ١٨٣٦٨، ص:١٤/١٧٨

وأما من الناحية العملية فهناك فضائل عملية كثيرة حثّ الإسلام عليها، وأقرّ بعض الأخلاق الطيبة التي كانت سائدة في الجاهلية كفضيلة الكرم، حيث أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في إحدى المعارك بفكّ أسر بنت حاتم الطائي، لأن أباها كان محبّ الأخلاق الفاضلة. وحثّ عليها أحاديث الفضائل مثل حفظ الأمانة وذمّ الخيانة. فعن أنس بن مالك قال: "ما خطبنا نبي الله صلى الله عليه وسلم إلا قال: لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له"[1]. ففي هذه الوصية يُقرن بين الدين والوفاء بالعهد، ويُنفي الإيمان لمن لا أمانة له ولا عهد له.

وهذا خلق من الأخلاق الكريمة الفاضلة والنبيلة والنادرة لا يفقهه إلا النفس الطيبة. وهناك كثير من الفضائل العملية كحُسن الجوار وصلة الأرحام والإحسان إلى المُسيء وإطعام البائس الفقير، وسيد هذه الفضائل جميعها هو الحياء لقوله: "إن لكل دين خُلقًا، وإن خُلق هذا الدين الحياء"[2].

فالموجز أن الاسلام هو الدين السماوي الفطري يدعي تقوية الأخلاق الإنسانية وتنمية الآداب السلوكية، كما أنه يعتني بتأديب الأفراد ثم المجتمع، ويدرك أن التأديب بالأخلاق هو الحل الوحيد لدفع الفواحش والرذائل عن الأفراد والمجتمع. وهذه الفضائل العملية في أمس الحاجة للمجتمع الإنساني السالم حيث تقوي الحياة الإجتماعية بها وترتبط أعضاء المجتمع مع روابط الإخاء كي يتعاونوا على البرّ والتقوى؛ وتحس على الأواصر الإجتماعية، وتغمر حياة الإنسان بالفضائل الكبرى التي تزكيه وتسمو به إلى مصاف الملائكة الكرام.

---

[1] أحمد بن محمد بن حنبل؛ *المسند*، دار الحديث، القاهرة (١٩٩٥). ص: ٤٣٨/١٠

[2] السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن؛ *الجامع الصغير*، (ترجمة: فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة محمد المدعو بعبد الرؤف المناوي)، دار المعرفة للطباعة والنشر، لبنان (١٩٧٢). ص: ٥٠٨/٢

دراسات و أبحاث :

وسط جزيرة العرب

(الحلقة الأولى)

(الربع الخالي – النفوذ – الدهناء – بادية الشام)

بقلم : العلامة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي
تعريب : محمد فرمان الندوي

إن المناطق الداخلية في جزيرة العرب صحراوية أو نصف صحراوية، ففي وسطها سطح مرتفع عام باسم نجد ، وفي جنوبها وشمالها صحراوان كبيرتان باسم الربع الخالي والنفوذ ، وفي الصحراء الشمالية منطقة واسعة جافة ، تعرف ببادية الشام ، وفي الجهة الشرقية من نجد ضفة رملية امتدت من الربع الخالي إلى النفوذ ، فهذه الصحاري كلها امتدت على أكثر من ثلث جزيرة العرب .

الربع الخالي :

هذه صحراء كبيرة وخطيرة تغطي جنوب جزيرة العرب ، وهي أكبر صحار في شبه جزيرة العرب ، امتدت في نصف منطقتها الجنوبية إلى سواحلها ، تقدر جميع مساحاتها حوالي أربع مأة ألف ميل مربع ، لكن منطقتها الأصلية الصلبة مأتا ألف ميل مربع ، وهي ممتدة من اليمن إلى عمان حوالي تسع مأة ميل ، ومن حضرموت إلى نجد حوالي خمس مأة ميل ، ويقدر أن أرضها مسطحة وصلبة ، وتوجد فيها حصى وجنادل، وتتحول رمالها من مكان إلى مكان آخر ، وفيها تلال رملية متأرجحة ، لكن ينابيع المياه وآبارها فيها شبه مفقودة ، وإذا وجدت آبار كانت مسافة بين كل بئرين اثنين حوالي أربع مأة ميل ، ويمر بهذه الصحراء إعصار شديد من الرمل ، يقلب سطح الأرض حيناً لآخر ، ويطير أكواماً من الرمال من هنا إلى هناك ، إذا تعرضت لها قافلة بادت ودفنت فيها ، وإذا لم تكشف الريح رمالها لا ترى عظامها ، وهذا الإعصار يتركب من رياح مسمومة ، وإذا وصل هذا الإعصار إلى مناطق غير رملية كان مهلكاً وخطيراً ، يتحدث سائح إنجليزي عن مثل هذا الإعصار ويقول : " قد جرينا وقت الظهر أن

الشمس قد زالت ، وكان الجو صافياً ، رغم الرمال المحرقة ، وتزايدت شدة الريح شيئاً فشيئاً ، فانصرفت إلى صديقي العربي ، وقد أوى إلى عنق الإبل مغطياً وجهه بردائه ، وكان أصحابه أيضاً في هذه الحالة ، لما سألته مراراً أشار إلى خيمته هنا ، وقال: الجأوا إليه وإلا تهلكون ، فلا توقفوا الإبل ، بل أسرعوا سيرها ، واضربوها لتتقدم إلى الأمام ، وكنا ننظر الخيمة قلقين ، وكانت على مسافة مأة ذراع ، فبينما نحن إذ اشتدت الريح ، ولا نكاد نحث مطايانا ، واسودّ الأفق بسرعة ، وبدأت لفحات الريح الحارّة في هذا العالم المظلم ، كأنها تخرج من جبل حارّ ، ورغم جميع مساعينا أخضعت الإبل ركبتها دوراناً ، ثم اشتدت لفحات السموم بشدة ، غطينا وجوهنا مثل أصحابنا العرب ، إن لفحة الريح المظلمة والحارّة كانت مهلكة ، يبدو أن جهنم نتجت من هذه الأرض ، ومن سعادة حظنا أننا لجأنا إلى الخيمة في نفس الوقت ، لافين الثياب برؤوسنا ووجوهنا ، وكانت مطايانا مثل أجساد ميتة في انتظار نهاية الإعصار . " (رحلة نجد والأحساء لوليم كيفر دوبا لكريو)

إذا نزل المطر في صحراء الربع الخالي أحياناً أو وصل الماء من الأودية المجاورة ، نبتت منه بعض الحشائش الشيطانية القوية ، وصارت فيها مراتع ، يرعى فيها الأعراب مواشيهم ، وإذا جفّت انتقلوا منها ، وهذه الحالة تستمر إلى عدة شهور ، وإن الدخول وسط هذه الصحراء شبه مستحيل ، وقد أثبتت الدراسات النهائية عن هذه المنطقة أن عدداً من الأعراب أهل الوبر يسكنون فيها ، يبلغ عددهم حوالي مأتين ، وهم ينتمون إلى قبيلة رواشد ، توجد فيهم صفات عربية وبدوية ، وهم جاهلون عن العالم الخارجي ، على كل ، فإن هذه الصحراء جافة مثل الصخرة ، وغير صالحة للانتفاع بها مثل ماء البحر .

يسمي العرب جوانب هذه الصحراء بأسماء مختلفة ، ويعرفون المنطقة القريبة من حضرموت بسهدة ، والضفة الغربية الشمالية من حضرموت بالأحقاف ، والأحقاف هي الأرض التاريخية لدى العرب ، التي يسكن فيها قوم عاد ، قال الله تعالى : وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ (الأحقاف : ٢١) ويعرف الجانب الشمالي من مهرة بوبار ، وهذه المنطقة كانت لدى العرب موضع الجن ، وإن فضاءها الموحش الخالي موضع الخوف والدهشة للسكان المجاورين ، ويظن العرب أشياء هذه المنطقة خطيرة وذات أهمية كبيرة ، فكل من ورد هذه المنطقة لا يهتدي إلى طريق بل يضل ، قال الفرزدق :

ولقد ضللت أباك يطلب دارماً
كضـــلال ملتمس طريق وبار

يعتبر العرب مخلوقات هذه المنطقة وإبلها وخيولها حيوانات تحمل قوة خارقة للعادة ، وإن رمال هذه الصحراء ما بين أحمر وأسود ، فسميت بالدهناء ، كانت قوافل العرب التجارية في قديم الزمان تذهب إلى مرباط وظفار مروراً بها .

ويعرف الجانب الشرقي والشمالي من الربع الخالي بيبرين ، وهي تقع قريباً من اليمامة ، ويضرب بها المثل عند العرب في كثرة الرمال ، وتوجد في جزء منها أرض ذات نخل ، ينزل فيها القوافل التي تذهب إلى الحج من عمان ، وتعرف الصحراء التي بين اليمامة والأحساء بعالج ، وهي أيضاً مضرب المثل في كثرة الرمل ، ويمثل لبيان زيادة شيئ برمل عالج .

الربع الخالي صحراء كبيرة وخطيرة ، لا تقدر مساحتها بسعتها ووعورة طريقها على وجه صحيح ، لكن الرحالين ذوي الهمة العالية قدّروا سعتها وخطورتها وأفادوا في هذا الأمر بدراسات ضئيلة .

النفود الكبرى :

هذه الصحراء الشمالية التي تقع في شمال سطح مرتفع (نجد) ، وهي أيضاً صحراء كبيرة ، تعرف باسم النفوذ ، والنفوذ اسم لتلال حمراء من الرمال في لغة البادية ، وصحراء النفود على مسافة ثمان مأة ميل من صحراء الربع الخالي ، فبينها وبين الصحراء الجنوبية الربع الخالي ، سطح مرتفع واسع باسم نجد ، وهي تحمل خصائص صحراوية إلى حد كبير ، لكنها خضراء وصالحة للاستفادة بالأودية وتسهيلات أخرى مثل الماء .

وصحراء النفوذ تشتمل على قطعة كبيرة وعلى قطع صغيرة من القطع الصحراوية ، وتعرف القطعة الكبيرة بالنفوذ الكبرى ، والقطع الصغيرة بنفوذ البطراء ونفوذ قنيفذة ، ونفوذ السر ، ونفوذ الشقيقة ، فهذه القطع كلها متشابهة ، وإن طول النفوذ الكبرى مأة وثمانون ميلاً ، وعرضها مأة وأربعون ميلاً .

إن رمال النفوذ عامةً لينة من الربع الخالي ، تنساخ فيها الأقدام ، وليس المشي في النفوذ سهلاً ، فإن تلال الرمال من شدة الرياح تقوم وتنهدم ، وتكون ما بين صغيرة وكبيرة ، ويكون طول بعضها خمس مأة قدم ، وتكون حفر وآبارمن هذه التلال ، فإذا مرت قافلة من العرب بها تمر بوهادها ونجادها ، وتمشي فيها الإبل مشياً حثيثاً من الناس والحيوانات

الأخرى ، لكن تتساخ أقدامها أحياناً إلى الركب ، يستضيئ فيها المسافرون العرب من النجوم ، فتحمل النجوم للمشاة في الصحراء أهمية كبيرة ، قال الله تعالى : وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (النحل : ١٦) .

ينزل المطر في منطقة النفوذ في فصل الشتاء ، فتنبت به في نواحيها نباتات صحراوية ، يرعى فيها الأعراب مواشيهم ، وينزلون فيها ، ويرحلون منها بعد جفافها ، وينجذب ماء المطر في منطقة النفوذ أيضاً ، ويجتمع الماء أحياناً في بعض الحفر في صورة البرك ، يستفيد منها قوافل تمر من هنا ، وخارج الصحراء في شمال النفوذ أرض ذات نخل جيدة ، تعرف بدومة الجندل أو الجوف .

الدهناء :

إن ضفة رملية من جنوب النفوذ تماثلها ميزةً وخصوصيةً ، امتدت إلى الربع الخالي ، وانضمت إليه ، تعرف بالدهناء بلون رملها الأحمر ، ففي جانبها الغربي على سطح مرتفع من جزيرة العرب منطقة نجد ، وفي جانبها الشرقي هضبة منخفضة باسم الصمان ، وفي جنبها الساحل الشرقي من جزيرة العرب الأحساء ، وإن أرض الصمان جبلية ، تشبه البياض .

بادية الشام :

إن بادية الشام في شمال النفوذ الكبرى مباشرةً صحراء واسعة في شكل مثلث ، يقع على جانبها الشرقي العراق ، وعلى جانبها الغربي الشام، وتتميز بادية الشام من النفوذ الكبرى بميزة خاصة ، وهي أن النفوذ ساحة رملية يميل لونها إلى الحمرة ، وبادية الشام ساحة حجرية يميل لونها إلى البياض ، وبادية الشام منطقة ذات حجارة صلبة ، لا ماء فيها ولا نبات ، يوجد فيها أودية ، من أهمها وادي السرحان ، يمتد من الشمال إلى الجنوب، وينتهي إلى الجوف ، وعلى حافتيه سلسلة ذات نخل، توجد فيها مراكز عمرانية ، تمر من هذا الوادي قوافل من الشام، وفي بادية الشام أودية صغيرة أخرى ، تكون جهتها عامة من المغرب إلى الشرق ، وتنتهي إلى نهر الفرات ، فمنها وادي حوران ، وعلى نواحي بادية الشام الشرقية والغربية والشمالية سلسلة عالية من الجبال ، وإن الجبال الشرقية والشمالية جزء من جبال البلدان العجمية ، وجبال الشمال في تركيا ، وتعرف بطوروس ، وجبال الشرق في إيران ، وتعرف بزغروس ، فالمنطقة التي تتصل ببادية الشام نزولاً من جبال زغروس ، صالحة للزراعة رغم صحراويتها ، لأن نهري دجلة والفرات يمران منها ، وهما يجعلان هذه المنطقة ونواحيها خضراء وخصبة ،

وعلى حافتيها بساتين النخيل ، تزرع فيها كمية كبيرة من النخيل في العالم، وهذه المنطقة كانت جزءً من إيران قبل الإسلام ، وكانت فيها عاصمة إيران المدائن ، عمر فيها المسلمون مدناً كثيرة ، بعد فتح هذه المنطقة ، من أكبر مدنها بغداد ، التي كانت عاصمة للمملكة الإسلامية إلى مئات من السنين ، ثم كانت عاصمة لمنطقتها ، وصارت هذه المنطقة إدارياً بعد فتح المسلمين ، وسميت بالعراق ، وإن نهري العراق اللذين يمران ببادية الشام ينشقان من جبال تركيا في شمالها ، وينضمان إلى هذه المنطقة من حدود بادية الشام الشمالية ، فيدخل ماء دجلة من شمال الشرق ، وماء الفرات من شمال الغرب في العراق ، والفرات يمر من مناطق واسعة من الشام قبل العراق أيضاً ، وهذان النهران يتصل بعضهما ببعض قرب مدينة القرنة قبل وصولهما إلى الخليج العربي بمأتين وأربعة كيلو مترات ، ثم يجريان معاً إلى البحر ، فإن ملتقاهما الذي يمتد من مدينة القرنة إلى مناطق واسعة من الشمال واقعة بين هذين البحرين يعرف بالجزيرة بخصبتها ، وتسمى المنطقة الواقعة في الجنوب بموضع الالتقاء بسواد العراق ، ويعرف هذان البحران بشط العرب .

وتزرع النخيل على حافتي شط العرب ، لأن أرضها خصبة للنخيل مثل شبه جزيرة العرب ، والعراق خضراء بسهولة الماء ، وكانت مهداً للثقافات القديمة ، عواصمها نينوى وبابل ، والمدائن والحيرة ، قد تحولت إلى أطلال ، وقد اتصل به تاريخ الآشوريين والسومريين والكلدانيين العظيم القديم ، الذي يعد أقدم التاريخ في تاريخ الثقافات ، وكانت مدينة إبراهيم عليه السلام في منطقة جنوبية من العراق ، وإن مدينة الحكومة الكلدانية بابل ، وعاصمة الحكومة الإيرانية في وسط العراق، وتسمى بادية وسط العراق بادية الجزيرة أو الخساف أيضاً ، وتسمى منطقة الجانب الغربي من شط العرب ببادية الشام ، فهي محاطة بسلسلة جبلية ، يقال : إن علاقتها بجبال طوروس في تركيا ، وفي الجنوب تتصل بجبال السراة ، وفي الجانب الغربي من هذه الجبال بحر الروم ، فإن آثار المطر التي تهب من بحر الروم تسقي هذه الجبال ، ثم تمتد منها فتسقي جبال العراق أيضاً ، وإن الجانب الغربي من بادية الشام والمنطقة التي تشتمل على جبال خضراء في جوارها تعرف بالشام ، منها فلسطين أيضاً ، وهذه المنطقة خصبة خضراء كثيرة ، بكونها في جهة الشمال ، واشتمالها على جبال عالية ، والاستفادة من أمطارها ، وظلت مهداً للحضارات المتنوعة ، القائمة منذ أمد بعيد ، من

أهمها الحضارة الكنعانية والحضارة الفينيقية بوجه خاص ، وإن المنطقة الصحراوية التي تتصل بهذه الجبال في الجانب الشرقي نزولاً من بادية الشام جافة و قفر، لا ماء فيها ولا نبات ، وممتدة في الشرق إلى جبال العراق بل إلى بحاره ، وهي تعرف ببادية الشام ، ففي غرب هذه البادية بعداً من جباله الخضراء توجد مناطق صغيرة ، جبلية أو خضراء إلى حد كبير أو خصبة ، من أهمها منطقة تدمر ، ظلت حكومة العرب في الزمن الجاهلي ، وفي جنوب دمشق قرب تدمر كانت حكومة الغساسنة العرب .

إن بادية الشام وإن كانت ممتدة بين العراق والشام ، لكن تعرف بهذا الاسم ، وتعرف بادية المنطقة العراقية في الشمال ببادية الجزيرة أو الخساف وفي الجنوب ببادية العراق أو السماوة ، وكلمة السماوة باللغة العربية هي الأرض المسطحة ، التي تخلو من الحجارة ، إن بادية الشام حجرية أو وعرة ، تمر من بعض طرقها قوافل الأعراب أيضاً ، وهذه الطرق مرت بالأودية عامة ، هذه البادية ليست صحراوية ، لكنها جافة وغير خضراء من النفوذ الكبرى بقلة المياه فيها وجفافها ، تتعرض هذه المنطقة لأعاصير الرمال والطين الحارّة ، التي تهلك الناس والحيوانات وتؤذيهم ، وقد قطع سيدنا خالد بن وليد رضي الله عنه هذه الصحراء الواسعة مع المجاهدين المسلمين في خمسة أيام بدون الماء ، ووصل من العراق إلى الشام في مدة ، لا يتصورها الناس ، ويقدر طول هذا الطريق التي تختص بين بغداد ودمشق بالسيارات خمس مأة وأربعين ميلاً ، إن جوانب بادية الشام الشرقية والغربية والشمالية بتغطيتها الجبال ينزل عليها المطر فتكون خضراء وخصبة .

إن بادية الشام ظلت مركز الخلافة الإسلامية إلى ثماني مأة سنة، كان يحكمها بنوعباس ، وكانت عاصمتها بغداد ، وكان جانبها الغربي الذي كانت عاصمته دمشق ، ظلت مركز الخلافة الإسلامية في العصر الأموي من قبل ، وقد ازدهر الجانب الشرقي من بادية الشام في العصر العباسي ازدهاراً كثيراً ، قيل : إن عمران هذه المنطقة كان أربعة أضعاف من يومنا هذا ، وكانت بغداد كبرى البلدان في العالم حضارة وقوة ، يذكر أن نسبة سكان بغداد مليونان رغم ضآلة المواصلات في قديم الزمان .

قيم متغيرة في الأدب العربي بين القديم والحديث

الباحث محمد علي أختر الندوي
(دهلي – الهند)

مدخل إلى الموضوع :

الأدب قيمة إنسانية اجتماعية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحياة . تنعكس الحياة في مرآة الأدب بكل ألوانها زاهية وغامقة . يبتسم بفرحها ، ويدمع بألمها . يشيد بجمالها ويثور وينعى على دنائتها . يهبط بخذلانها ويرقى بنضارتها . "فالأديب يتأثر بالحياة الخارجية السائدة في بيئته ، القائمة في مجتمعه ، وهو يستمد أدبه من حياة هذا المجتمع"[1] تتخلى الحياة عن أزيائها البالية القديمة وتتقدم على عجلات النزعات والاتجاهات الجديدة لاكتساء الجدة والرقي ، فينتفض الأدب كذلك نافضاً عنه غبار الرواسب البالية لاستيعاب ما طرأت عليها من تحولات مستجدة وتطورات جديدة ويتجدد باستلهام الشعور والعقل المعاصرَين . وتحت تأثير روح العصر وأحوال البيئة ينزع الأدب نزعات شتى ويسلك مسالك مختلفة تتمثل في المدارس الأدبية من الكلاسيكية والرومنطيقية والواقعية والرمزية والسريالية وغيرها . و مع ذلك تبقى في كليهما – الحياة والأدب – عناصر تمسك الماضي بنواجذها وتتغالى بالمحافظة على القديم إلى حد التقديس أحياناً . وتنطلق من هنا قضية الصراع بين القديم والحديث ، الدائر حول كل دعوة للتجديد في كل زمن . ولا يعني التجديد في الأدب جدة مطلقة في طفرة مباغتة بحيث لا بد أن تنقطع صلة الجديد بالقديم باتاً ، فإن الجدة في الأدب ظاهرة طبيعية لا تتولد إلا من بطن القديم نفسه جراء العوامل الخارجية التدريجية فتجدد قيمه ومعالمه وتستبدل المعايير القديمة بالمعايير الجديدة ، ولكن يظل الأدب مربوطا بتراثه مهما بدا الجديد طريفاً رائعاً ، ومهما اختلف ذوق المعاصر عن ذوق القديم .[2]

---

[1] د. حنا الفاخوري: "الجامع في تاريخ الأدب العربي – الأدب القديم" دار الجيل بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٦، ص ٢٧

[2] د . غنيمي هلال : " قضايا معاصرة في الأدب والنقد " ، مطبعة نهضة مصر، بدون

وفي ضوء هذه المقاربة الموجزة إضافة ما قال أدونيس في تمييز الجديد من الحديث "للجديد معنيان: زمني ، وهو في ذلك آخر ما استجد . وفني ، أي ليس فيما أتى قبله ما يماثله . أما الحديث فذو دلالة زمنية ، ويعني كل ما لم يصبح عتيقاً . كل جديد بهذا المعنى حديث ، لكن ليس كل حديث جديدا . الجديد يتضمن معياراً فنياً لا يتضمنه الحديث بالضرورة ، وهكذا قد تكون الجدة في القديم كما تكون في المعاصر"[1]

سنلقي نظرة نقدية على الأدب العربي كله - القديم منه والحديث - مع تأكيد أن نزعة التجديد ليست حكراً على الأدب العربي الحديث ، فإنما عصور الأدب العربي القديم الممتدة تخللتها نزعات تجديدية ومحاولات أدبية ثورية كذلك منذ العصر الجاهلي نفسه .

الأدب العربي القديم :

❖ الشعر ديوان العرب في الأدب الجاهلي

تاريخ الأدب العربي عريق في القدم ، ولكن أقدم ما وصل إلينا منه هو الشعر في القرنين الأخيرين قبل الإسلام ، وهو في كمال نضجه وغاية اكتماله الفني ، التي لم يكن له أن ينالها في بضع سنوات بل في أقل من ألفي سنة كما قال الدكتور عمر فروخ .[2] وحتى لم يصل إلينا إلا نزر منه . يسبق النثر عادة نشأة الشعر وتطوره ، ولكن بما أن العرب فضلوا الشاعر على الخطيب ، أهملوا رواية النثر الجاهلي فلم يصل إلينا منه إلا خطب و حكم و أمثال ووصايا وسجع الكهان . امتازت بخصائص لغوية ناصعة . بيد أنها لم تكن تعبيراً عن الحياة فلم تصل إلى مكانة الشعر ، الذي لا أدل على أهميته في العصر الجاهلي من أنه إذا نبغ في قبيلة شاعر ، أقيمت فيها مآدب و هنأتها قبائل أخرى ، لأن الشاعر عندهم كان بمثابة وسائل الإعلام في الحياة المعاصرة . فوصف الشعر "بديوان العرب" وسجل تاريخه . حتى إذا بلغت قصيدة ما مبلغ إعجابهم جميعاً ، علّقت على جدران الكعبة ، ومن

تاريخ ، ص ٤٢

[1] نقلا عن "شعراء وجوديون من غرب آسيا " للدكتور محمد شاء الله الندوي ، دار الآداب الإنسانية عليجراه ، ٢٠٠٣ ، ص ١٣

[2] دكتور عمر فروخ : " تاريخ الأدب العربي " الجزء الأول ، دار العلم للملايين ، الطبعة الرابعة ، ص ٧٣

هنا وصلتنا المعلقات السبع أو العشر التي تشمل فطاحل الشعر الجاهلي .

تميز العصر الجاهلي بالحياة البدوية القاسية والبنية الاجتماعية القبلية والمصادر الاقتصادية الشحة التي فرضت على المجتمع رذائل من وجه، فإنها رسخت فيه فضائل من وجه آخر ، وكل هذه وتلك تبلورت بوضوح في مرآة الشعر الجاهلي . والشعر الجاهلي شعر وجداني مطبوع يجري على سجيته و يتميز بكل ما تميزت به الحياة البدوية من السذاجة والبساطة و الصراحة والصدق والعفوية بعيدا عن التكلف والتصنع والتنميق والتعقيد . و قد أضفت عليه الطبيعة الصحراوية الشاسعة هالة سحرية من سعة الخيال الفطري البسيط الذي اعتمد على التشابيه والاستعارات أكثر من اعتماده على انتزاع الصور من الطبيعة . وفي الإطار اللفظي ، تميز الشعر الجاهلي بجزالة اللفظ وبلاغة الأداء بحيث لا يجرى إلا طبقاً لقواعد اللغة العربية الأصيلة وحسب ما تقتضيه أساليب العرب . أغراض الشعر الجاهلي محدودة بطبيعة الحال وأحياناً يمر الشاعر الجاهلي في قصيدة بكل هذه الأغراض مركزا في الأكثر على غرض أو غرضين . ابتداء من ذكر الأطلال عادة ومروراً بوصف الحبيبة والراحلة .[1] لم يتبع الشاعر الجاهلي مذهباً أدبياً وفكراً فلسفياً في شعره ، ولكن بما أن حياة العصر الجاهلي سيطرت عليها المادية ، يعبر الشعر الجاهلي عن الفكر المادي المحسوس ويقترن بالواقعية والموضوعية الصارخة . غير أننا نرى أن ذاتيته لم تكن بمنأى عن ذاتية جماعته ، فإن ذاتيته كانت منصهرة في ذاتية جماعية لا يمكن فصل بعضها عن بعض . والدليل عليه أن الشاعر الجاهلي قلما يتحدث بدون ضمير الجماعة التي يعتز بانتمائه إليها . وتتجلى ذاتيته وضوحا في أغراض ذاتية خالصة من الشعر كالغزل والوقوف على الأطلال والرثاء[2] .

يترقى النثر ويتأثر الشعر بالمبادئ الإسلامية في صدر العصر الإسلامي

وما أن نصل إلى صدر العصر الإسلامي حتى نرى بصمات القيم الإسلامية تتسرب إلى الشعر والنثر كليهما . أخذت القراءة والكتابة تعمان تحت تأثير تعليم القرآن في المجتمع الإسلامي ، فتطور النثر وتمددت فيه

---

[1] عمر فروخ: نفس المصدر، ص ٨٣- ٨٤

[2] د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطي: "قيم جديدة للأدب العربي - القديم والمعاصر"، دار المعارف، الطبعة الثانية ١٩٧٠ ص ٣٤ - ٣٦

الموضوعات . قويت الخطابة وكثرت الرسائل . ظل النثر الإسلامي الأول محافظاً على أكثر ميزات النثر الجاهلي اللفوية ، ولكنه مع ذلك كان شديد التأثر في أغراضه ومعانيه وأساليبه بالقرآن الكريم .[1] ولم يقفد الشعر مكانته ولم تكسد سوقه كما يطرق آذاننا في دراسة تاريخ الأدب العربي القديم ، بسبب اشتغال الناس بالقرآن والجهاد وبسبب نعي القران على الشعراء . فإن استثناء القرآن للذين آمنوا وعملوا الصالحات وخلع النبي صلى الله عليه وسلم بردته على كعب بن زهير الذي كان قد أهدر دمه من قبل وإعجابه بالخنساء وتشجيعه لحسان بن ثابت وغيره من الشعراء ، كل هذا وغيره يدحض من يزعم أن الإسلام نصب للشعر العداء . نشط الشعر في تلك الفترة نشاطاً ملحوظاً إلا أنه اتخذ مسلكا غير مسلكه السابق فأصبح لسان الدعوة الجديدة ، كما أصبح أداة مهمة لعداء المشركين ومقاومتهم للهدى والهداة . وبذلك سار في اتجاهين متعاكسين . ونشبت مساجلات حامية بين الشعراء المسلمين والكافرين. فوجدت النقائض في تلك الفترة في صورتها الكاملة قبل أن تظهر نقائض الفرزدق وجرير في العصر الأموي .[2] ولم يبتعد الشعر كثيراً في أسلوبه من الشعر الجاهلي ، وإن اختلف منه في الأغراض والمعاني بطبيعة العصر والبيئة والتيارات الفكرية الإسلامية السائدة .[3]

يتطور النثر إلى فن ويعود الشعر إلى العصبية الجاهلية مقيداً في البلاط في العصر الأموي

انقرضت فترة المخضرمة ونشأ جيل جديد وعاش في الإسلام فكان من المنتظر أن يظهر أدب تطبعه القيم الإسلامية الخالصة ، غير أن حدثا خطيرا تمثل في انتقال الحكم إلى بني أمية حوّل مجرى الأدب كما غير مجرى الحياة الاجتماعية والسياسية . انبعثت العصبيات القبلية وتفاقمت المنافرات بينها من جديد ، وظهرت الأحزاب السياسية التي قسمت الأمة الإسلامية إلى شيع فكرية دينية شتى . وتحت هذه الدواعي العصبية والسياسية ، ازدهرت الخطابة في النثر ولكنها ظلت جاهلية في الأسلوب وإن

---

١ عمر فروخ: نفس المصدر، ص ٢٥٤

٢ الدكتور بدوي طبانة: "دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث"، الطبعة السابعة ، ١٩٧٥ ص ٧٨

٣ عمرو فروخ: نفس المصدر، ص ٢٤٦

استحالت أغراضها إسلامية . اتسعت الحياة السياسية ، فتجددت الرسائل وتوسعت موضوعاتها لأن الخلفاء وظفوا أدباء بارعين جمعوا بين الثقافات المتنوعة ، لكتابة الرسائل نيابة عنهم كعبد الحميد الكاتب الذي رقي بها إلى فن ، له دعائمه وخصائصه المميزة .[1] رقي الشعر وكان أبرز فنون الأدب ولكن انسحب في سجن البلاط وعلق مصيره بسياسة الولاة منصرفا عن الحياة الاجتماعية للشعب . يعبر عما يملي عليه البلاط وتحدد هي مكانة الشعر الفنية . بقي أشبه بالشعر الجاهلي في الأسلوب والألفاظ وفي كثير من الأغراض ولكنه أيضاً احتوى على الألفاظ والآراء الإسلامية وتأثر بالثقافات الأجنبية . راجت بضاعة شعر المديح واشتد الهجاء وذاعت النقائض المقذعة الفاحشة التي اشتهر بها جرير والفرزدق والأخطل وهم الذين أخملت شهرتهم أسماء كثير من الشعراء المجيدين .[2] عم الرخاء فانتشر البذخ والترف ، وكثرت الجواري فساد اللهو والمجون ، فترعرع في حضنه الغزل منفصلاً عن بداية القصيد . ونشأ في كنفه الغناء . وجرى الغزل في تيارين متضادين من الغزل العذري والغزل الماجن وامتاز في نطاق الأسلوب بالنبرة الغنائية .[3]

يبلغ النثر أوجه ثم ينهار إلى مجرد الزخرفة اللفظية مثل الشعر الذي يناله اللحن ويليه العقم في العصر العباسي

تغيرت الأوضاع في العصر العباسي كثيراً مما كانت عليه في العصر الأموي . ازدهرت الحياة الاقتصادية التي جلبت رخاء وثروة طائلة وتغيرا هائلا في أنماط العيش . ونال التحضر من صميم البداوة وخصائصها . ازدحمت الثقافات والفلسفات الأجنبية وشاعت التقاليد والعادات الأجنبية والمساوئ المدنية في الثقافة العربية البدوية . واحتلت العصبية العنصرية مكان العصبية القبلية . فاشتدت الشعوبية . أدت المؤثرات الأجنبية إلى توسيع آفاق العلم وتنويع فنون الأدب وألوانه واتساع الخيال وبروز أساليب جديدة من الحضارة والجنس والثقافة ، فإنها أيضاً أفضت إلى انحطاط اللغة

---

[1] عمر فروخ: نفس المصدر، ص ٣٦٠

[2] راجع عمرو فروخ: نفس المصدر، ص ٣٦٨ وما قبله ، وعائشة عبد الرحمن: نفس المصدر، ص ٩٩ وما بعد

[3] د. شوقي ضيف: "الفن ومذاهبه في الشعر العربي"، دار المعارف، الطبعة الحادية عشرة، ١٩٨٧، ص ٣٨

من شيوع اللحن وتفشي العجمة حتى أطلق على شعراء هذا العصر لقب المولدين الذين لم يحتج بأشعارهم في قواعد النحو والصرف . ظلت أغراض الشعر في هذا العصر إما قديمة توسعوا فيها أو مبتكرة جديدة أبدعوها ولم يألفها الأدب العربي . ظهر تيار جديد من الشعر مال إلى ما سماه شوقي ضيف " بالتصنيع " ، شأنه الزخرفة والتنميق والإكثار من المحسنات البديعية . ومثّل هذا التيار الجديد أبو تمام وغيره . بجانب التيار المحافظ على المذهب القديم من الصناعة ، الذي مثّله بشار وأبو نواس والبحتري وغيرهم . تطور شعر المديح من البداوة إلى التحضر ، وتوسع الوصف وتفنن في تمثيل مظاهر الحياة الجديدة وخاصة عند البحتري . انتشرت الخمريات والطرد (وصف الصيد) وأصبح كل منهما غرضا مستقلا ، وشاع شعر اللهو والمجون وتخطى إلى الولع بالغلمان ، تولى رئاستها أبو نواس . إضافة تفشى شعر الزهد و الزندقة معا دالا على تفاقم المخاصمات الفرقية . تغير أسلوب القصيد وأخذ الشعراء يجتنبون افتتاح القصائد بالوقوف على الأطلال بل استنكروه[1] . وما أن نتقدم إلى القرن الرابع الهجري ، حتى نعثر على مذهب جديد مكتمل في الشعر : مذهب "التصنع والتكلف البالغ " المفرم بإعادة الصور والمعاني القديمة المطروقة وعرضها مغلفة بتعقيد أساليب الزخرفة والتراكيب الشاذة وقد استوفى هذا المذهب غايته من التعقيد على يد أبي العلاء . وتمكن المتنبي من الإبقاء على حيوية الشعر وروعته رغم التصنع البالغ لما أضفى عليه من الإيحاءات الفلسفية والموسيقية . وجمد الشعر بعده مثقلا بمجرد التعقيد والتكلف والتصنع بضعف الدولة العباسية وعقم الحضارة التي لم تعد تعتنى إلا بالشكليات والتصنع والتكلف[2] . ولم يختلف شعر الأندلس عن المشرق كثيراً في الأغراض والمعاني والأساليب إلا في الموشحات والزجل وفيما يتعلق بالتفنن في تصوير مفاتن الطبيعة . فقد الشعر بهاءه وجرى على منواله هذا ، ولم يظهر أسلوب ومذهب جديدان فيه حتى طلوع العصر الحديث .

كان النثر في العصر العباسي أكثر ازدهاراً من الشعر . بل كان

---

١ أحمد نصيف الجنابي: "الأدب والنصوص"، لجنة وزارة التربية العراقية، الطبعة الخامسة، ١٩٧٢، ص ٩٧

٢ راجع "الفن ومذاهبه في الشعر العربي" لشوقي ، أبواب التصنع والتصنيع

عصراً ذهبياً له . غلب التدوين على الرواية فراجت الكتابة . وكثر التأليف والترجمة . وبلغت الكتابة من رقي وازدهار ما كانت عليه الدولة العباسية في السياسة والمدنية . وتفرع النثر إلى أقسام عديدة منها النثر الأدبي . تطورت التوقيعات إلى فن واضح المعالم وأصبح خاصة من خصائص العصر . وقل شأن الخطابة في وجه اتساع الكتابة الديوانية والرسائل الإخوانية . وظل النثر الفني محافظا على ما بلغه في العصر الأموي من حسن الألفاظ وسلامة العبارة وسهولتها والتلاؤم الموسيقي وتجنب التصنع والسجع المتكلف كما نجد عند ابن المقفع والجاحظ وسهل بن هارون . وتقدم العصر العباسي وأحاطه الترف والزخرفة ، فعاد السجع إلى الأدب من جديد في الرسائل والخطب[1] ووصل النثر الفني في الدواوين إلى أسلوب كله زخرفة وسجع وبديع ، برع فيه ابن العميد ، وطغت موجة التصنيع حتى لم تنج منه الكتابة التاريخية ، وبلغت قمتها من التحذلق والتكلف والتعقيد بالمحسنات البديعية حتى بات كأنه هو المنشود ، على أيدي الخوارزمي والهمداني والحريري ، وأصبح هذا الأسلوب المنمق أسلوب الكتابة الشائع في عصور تلت إلى بداية العصر الحديث .[2]

الأدب العربي في العصر الحديث :

في دراسة الأدب العربي أهم ما يلفت أنظارنا أن الأدب الجاهلي ينبع من صميم الثقافة العربية ولا يحاكي و يقلد فكراً غريباً عنه . والأدب الذي ظهر في العصر الأموي والعصر العباسي كان مختلفا عما سبقه بمعنى أنه لم يعد صورة لحياة العرب فقط بل أصبح يمثل الدولة الإسلامية مترامية الأطراف التي تلاحمت فيها ثقافات وحضارات عديدة . ولكنه في كل هذه العصور المختلفة ظل أدباً واحداً ، لغته واحدة وخصائصه متقاربة ولكن الأدب العربي في العصر الحديث اختلف كثيرا عن القديم . فبات أدباً متأسساً على دعائم أفكار وأخيلة غربية أجنبية: مذاهبه غربية ، أجناسه من المقالة والقصة والرواية والمسرحية غربية ، وقد انتقلت إلى أسلوبه العربي

---

[1] كارل بروكلمان: "تاريخ الأدب العربي" الجزء الثاني، دار المعارف، الطبعة الرابعة، بدون تاريخ، ص ١٠٧

[2] راجع للتفصيل "الفن ومذاهبه في النثر العربي" لشوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة العاشرة، ١٩٨٣

الفصيح عدوى الأساليب الغربية[1] . وذهب بعض الأدباء الجدد إلى إنكار أهمية الأدب العربي القديم مطلقا ونبذه في سلة المهملات . وغاب عنهم أن "التجديد لا يقطع الصلة نهائيا بالقديم ، وإن جدد من قيمه ومعالمه" .[2]

القصة ديوان العرب في الأدب العربي الحديث

تقلب العصر ، وتغيرت القيم والمعايير في العالم بأسره عامة وفي العالم العربي منذ نهاية القرن التاسع عشر خاصة ، تحت المؤثرات الغربية الواسعة - الثقافية والاجتماعية والسياسية والتقنية - فكان لا بد أن يتجدد الأدب في ألوانه وأصنافه بمسايرة الحياة المعاصرة واستيحاء مستجداتها . وبالتالي برزت على منصة الأدب أصناف وأجناس من الشعر والنثر ، لم يسبق له عهد بها من قبل . فإذا كان الشعر يعتبر ديوان العرب في قديم العصر ، تبوأت القصة في العصر الجديد هذه المكانة المرموقة وانطلقت تمثل وقائع الحياة تمثيلا أميناً ، وإن كانت فناً مستورداً من الآداب الغربية[3] . نشأت القصة في الأدب العربي بشكلها الفني في بداية القرن الماضي ابتداءً من الترجمة والاقتباس ووصولاً إلى فن أصيل بدأ به هيكل وترقى به نجيب محفوظ إلى قمته ولم تكد تصل إلى العقد الخامس من القرن . اتجهت القصة في الأدب العربي من البداية اتجاهات مختلفة طالما اختلطت في عمل واحد من الاتجاه التاريخي عند جرجي زيدان والذي رقي إلى النزعة التاريخية الرومانسية في "كفاح طيبة" و"رادوبيس" عند محفوظ ، والتحليل النفسي عند المازني والعقاد ، والتحليل الاجتماعي عند طه حسين وهيكل إلى عرض العيوب الاجتماعية عند محمود تيمور وتصوير طموحات ومعاناة الطبقات الوسطى والشعبية عند محفوظ .[4] نالت القصة رواجاً واسعاً

---

١ د. محمد عبد النعم الخفاجي: "دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه" الجزء الأول، دار الجيل بيروت، الطبعة الأولى، ص ٥ - ١١

٢ محمد غنيمي هلال: "قضايا معاصرة في الأدب والنقد"، دار نهضة مصر، بدون تاريخ، ص ٤٢

٣ من المبالغة إطلاق القصة بمعناه الحديث على المقامات والحكايات المنتشرة في الأدب القديم، فالقصة الحديثة ليست نتاج تطور القصة القديمة بل هي نتاج التأثر بالقصة الغربية الحديثة. أنظر "بين الهوية والانتماء: القصة العربية تبحث عن مكانتها الفنية بين الآداب العالمية" على الربط http://www.alquds.co.uk/?p=١١٣٥٠٠

٤ شوقي ضيف: "الأدب العربي المعاصر في مصر" دار المعارف، الطبعة العاشرة

بين الناس وإقبالا عظيماً من الأدباء بسبب اقترانها الوطيد بالحياة المنتشرة حولها وتفاعلها مع المجتمع . وأصبحت هي أكثر قبولا وانتشارا من الشعر لأنها استمدت موضوعاتها من واقع الحياة المباشر . فانعكست الحياة فيها بجبالها وسهولها ، وبأزهارها وأشواكها ، وبنغماتها وأناتها ، وبكل صراعاتها الاجتماعية والنفسية . رسخت القصة العربية رغم قصر عمرها مكانتها بين الآداب العربية ، بل نافستها في مكانة الريادة حيث تمكنت من الفوز بجوائز عالمية من جائزة نوبل إلى جوائز أدبية أخرى . تطورت القصة العربية تحت تأثير الأفكار والنظريات الأجنبية ولكنها كالشعر لم تبدأ مسيرتها بالكلاسيكية لتنتقل إلى الرومانسية . بل طفرت إلى الاتجاه الواقعي مباشرة . ظهرت خصائص الرومانسية من الناحية العاطفية في رواية "زينب" لهيكل وبعض أعمال محفوظ ، ولكنها لم تتجسد في اتجاه فيها . وخير ما مثل الاتجاه الواقعي هو يوسف إدريس في القصة القصيرة و نجيب محفوظ في الرواية . وقد نشأ بجانب القصة لون من الأدب جديد كل الجدة لم يكن له أي أثر في الأدب العربي وهو المسرحية التي نشأت في الأدب العربي الحديث في حضن مارون النقاش وفرح أنطون وتطورت لتصبح فناً ناضجاً ووثب وثبة نوعية عند توفيق الحكيم وكانت أقرب إلى القصة في الموضوع وإن اختلف منه في الأسلوب والخصائص الفنية .

استرد الشعر أنفاسه بيد أنه لم يعد يسترد شأنه إلى أن سقط فريسة التجديد الجارف

في ظل النهضة الحديثة الشاملة التي وسعت آفاق الفكر والخيال وعمقت الشعور العربي بالتراث في جانب وبالتجديد في جانب آخر ، استرد الشعر أيضا حياته و حيوته على أيدي الشعراء النابغين من أمثال محمود سامي البارودي وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وغيرهم . بعث البارودي ومن حذا حذوهم روحاً رقراقة في الشعر الذي كان أصبح غثاً مسفاً بلا حياة ، باستلهام أرقى نماذج التراث القديم من الشعر العربي فرفعوا به إلى قمته . حافظوا على رونق وديباجة الشعر القديم الراقي في صورته ومعناه ، فسُموا بمحافظين واتباعيين ولكن ترفعوا به عن رواسب التقليد الجاف والتشدق

١٩٩٢، ص ٢١٠ - ٢١١ وحنا فاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي - الأدب الحديث" دار الجيل بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦، ص ٢٧- ٢٨

في التصنع ، ولم يخل شعرهم من آمال العصر الحديث وآلامه وتباشير التجديد وخاصة عند شوقي ، فأطلق عليهم "الكلاسيكيون الجدد" . تميز العصر الحديث بالتفكير المنهجي والالتزام بأي من النظريات الفلسفية والفكرية المتعددة . ولكن لا نكاد نتبين أي أيدولوجية بارزة ونزعة فكرية محددة ومذهب أدبي معين عند شعراء الكلاسكية الجديدة العربية ، سوى الالتزام بالعقلانية المتمثلة في الوضوح الفكري والموضوعية ومحاكاة الواقع الخارجي وغيره من الصفات التي تشكل لب ميزات الكلاسيكية .[1] فشعرهم كان أقرب إلى روح العصر القديم منه إلى روح العصر الحديث . على أن ذلك لا يحط من شأنهم ولا من أهمية ما حقق هؤلاء من بعث الحياة وإحياء الروح في الشعر العربي .[2]

وفي أثناء ذلك ، نشأ جيل جديد متضلع من الثقافة الغربية والنظريات الأدبية الغربية خاصة ، ومفتون بها . فنقد بعضهم الشعراء المحافظين نقداً لاذعاً ، يتهمونهم بالتقليد الأعمى للشعر العربي القديم ودعوا إلى التجديد فيه على غرار الآداب الغربية . مثلت هذه الثورة "مجموعة الديوان" غير أنها نفسها لم تتمكن من نفض ما ثارت عليه . وأثار البعض الآخر منهم ثورة عارمة على الشعر العربي القديم كله ، وشددوا على نبذه باتاً ، يصفونه أضغاث أحلام مفككة ، خالياً من الخيال والعاطفة والإحساس ومسجلاً تاريخياً للأحداث والوقائع ، بينما الشعر عندهم إلهام سماوي ووحي رباني والشاعر نبي يعبر عما يحس بداخله من عواطف جياشة و مشاعرة متقدة[3] . دعوا إلى التحرر من أصفاد التقليد القديمة لا في المعاني فقط بل في الصياغة كذلك و ملء الفراغ بنماذج مستوردة تماما عن الغرب .

تمثلت هذه الثورة في المدرسة الرومانسية التي مثلها شعراء المهجر خاصة . أفرطت الرومانسية في الذاتية وبالغت في التباعد عن الصياغة الفنية للشعر العربي ، فانقطعت صلتها بتراث الشعر العربي القديم ولم تنج من تقليد إلا لتسقط فريسة لتقليد أشد خطرا . ولذلك لم تحظ من مكانة

---

١ شوقي ضيف: "الفن ومذاهبه في الشعر العربي"، ص ٥١٤- ٥١٥

٢ شوقي ضيف: "الأدب العربي المعاصر في مصر"، ص ٥٦

٣ M. M. Badawi: " A Critical Introduction to Modern Arabic Poetry", Cambridge University Press,1975 , p139

وقبول ما حظيت به الكلاسيكية الجديدة عند الناس والنقاد .[1] وقد أدى إفراط الرومانسية في الانطواء على العالم الداخلي مصحوباً بعوامل أوضاع سياسية واجتماعية واقتصادية على ساحة العالم العربي في أعقاب الحرب العالمية الثانية ونكبة فلسطين ، إلى نشوء المدرسة الواقعية أو مدرسة الالتزام ، التي مثّلها شعراء من أمثال صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي وفدوي طوقان وسياب وغيرهم . تأسس مبناها على أساس أن الأدب تعبير عن معاناة حقيقية للواقع فيجب أن يكون وظيفة إنسانية واجتماعية مرتبطة بالواقع . فكانت ثورة على الرومانسية وحملت رسالة مهمة للأدب ، ولكن مالبثت أن انجرفت في موجة التجديد العارمة بل وفاقت الرومانسية في الدعوة إلى تحرير الشعر من قوالبها القديمة ومن قيود القوافي والأوزان ومن كل خصائصه في اللغة والأسلوب والمعنى . وقد طغت على الواقعية إتجاهات أدبية ونظريات فلسفية أخري من الاشتراكية و الرمزية والوجودية والسريالية حتى بات من الصعب تبيين معالم الواقعية في خضمها .[2] وما عتم أن اكتنفت الشعر نزعات ونظريات نقدية شتى ، مما حوله إلى أحجية تحتاج إلى عقل الناقد لحلها . وإلى هذا أشار أدونيس قائلا: " المشكلة الآن في الشعر العربي الجديد لم تعد في النزاع بينه وبين القديم ، وإنما أصبحت في معرفة الجديد حقا وتمييزه ، فالواقع أن في النتاج الشعري الجديد اختلاطا وفوضى وغرورا تافها وشبه أمية . وبين الشعراء "الجدد" من يجهل حتى أبسط ما يتطلبه الشعر ..... ومن لا يعرف من الشعر غير ترتيب التفاعيل في سياق ما .....[3]

وهذا هو السبب أن الشعر العربي لم يحظ بما حظي به في الأدب العربي القديم وما تحظى به الآن القصة من قبول واسع ومكانة سامية ولا أدل على هذا من أن الروايات مثل "هيبتا " لمحمد صادق و"الفيل الأزرق" لأحمد مراد ، و "الهول" لأحمد خالد وغيرها ، تصدرت قائمة الكتب العربية الأكثر مبيعاً في العالم العربي في السنوات الأخيرة .

---

[1] شوقي ضيف: "الفن ومذاهبه في الشعر العربي"، ص ٥١٥ - ٥١٦

[2] ياسين الأيوبي: "مذاهب الأدب - معام وانعكاسات"، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية ١٩٨٤، ص ٣٨٢

[3] نقلا عن "اتجاهات الشعر العربي المعاصر"، لإحسان عباس، عالم المعرفة، ١٩٧٨، ص ٢٥

من تاريخ الحضارة الإسلامية

الترجمة العربية في عهد الرسول والخلافة الراشدة

(الحلقة الثانية الأخيرة)

بقلم: الدكتور ثمامة فيصل بن أبي المكارم
أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية ، جامعة مولانا آزاد الوطنية الأردية

الترجمة العربية في عهد الرسول عليه السلام :

ولما جاء الإسلام ونزل القرآن انشغل العرب بنشر رسالة الإسلام ودعوة الناس إلى الشريعة السمحاء ، وركزوا عنايتهم على فهم معاني القرآن وأحكام الإسلام ، وقَلّ اهتمامُهم بالشعر وفنون الأدب الأخرى في عصر صدر الإسلام بالمقارنة إلى ما تقدم عليه من العصور وما تأخر . وكانت الغزوات والحروب التي شهدها هذا العصر أهمَ عامل لعدم ظهور أي حركة علمية منظمة سواء من حيث التأليف أو من حيث النقل والترجمة من لغات أخرى . فلا نكاد نجد ذكر كتاب واحد تمت ترجمته من العربية أو إليها في هذا العصر . ومع أن القرآن الكريم كان قد دُوِّنَ على أشياء مختلفة مثل العسب واللخاف في عهد الرسول وجُمِعَ ورُتِّبَ في خلافة أبي بكر أولا ثم في خلافة عثمان رضي الله عنهما ثانية ، إلا أن التأليف باللغة العربية في فن من الفنون في شكل كتاب أو رسالة تأخر إلى عصر الخليفة الرابع علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - الذي ينسب إلى عهده تدوينُ أول كتاب في قواعد اللغة العربية على يد أبي الأسود الدؤلي . فإذا كانت هذه حال التأليف ، فأنى للترجمة العلمية أن تجد لها مكانا في تلك الظروف المتقلقلة .

وكلَ ما نجده من نشاط النقل والترجمة في هذا العصر يتمثل في ترجمة شفوية كان يزاولها التراجمة أثناء الاجتماعات واللقاءات أو للوفود التي كانت ترسل إلى الأمراء والملوك مثل الوفود التي أرسلها الرسول عليه السلام إلى ملوك عصره ، كما يتمثل في ترجمة ردود هؤلاء الملوك على الرسول عليه السلام . واستمر في مطلع هذا العصر ، مثلما حصل في العصر السابق ، أن اليهود من العرب هم الذين كان لديهم اهتمام بتعلم لغات أخرى؛ إلى أن اقتضت الحاجة إلى من يتعلمها من الصحابة بعد بعثة الرسول وتطلبت مهمة الدعوة الإسلامية معرفتهم بعضَ اللغات الأخرى لإبلاغ رسالة الإسلام إلى الأمراء والملوك من غير العرب . وشجع الرسول بعض الصحابة

على تعلم بعض اللغات الأخرى .

وتوضح لنا الأحداث والوقائع التالية كيف انحصر نشاط النقل والترجمة في هذا العصر داخل إطار الدعوة الإسلامية والاتصالات السياسية والدبلوماسية دون أدنى اهتمام لدى المسلمين الأوائل بنقل العلوم والفنون من التراث العلمي للحضارات الأخرى . وحتى تلك المراكز العلمية التي ازدهرت في المناطق الحدودية الشمالية للجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام توقف نشاطها خلال هذه الفترة بسبب الظروف المتقلقلة والحروب التي خاضها العرب ضد الفرس والرومان الذين كانوا رعاة لتلك المراكز العلمية ، ولم يتيسر لمعظم تلك المراكز استعادة نشاطها العلمي إلا على أيدي الخلفاء الأمويين والعباسيين .

ورأينا فيما سبق أن أهل مكة لجأوا إلى يهودي منهم كان يعرف السريانية ليقرأ لهم كتابا سريانيا عثروا عليه في ركن الكعبة أثناء هدمها . وتدل مصادر التاريخ على أن أهل الكتاب في الحجاز كانوا على علم بالعبرانية أيضا لكونها لغة كتبهم الدينية . فلما جاء رسولَنا الحقُ وهو في غار حراء وجاءه جبريل ، وأقرأه أولَ ما نزل من القرآن ، رجع عليه السلام إلى خديجة ، وأخبرها الخبر ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان قد تنصر في الجاهلية ، وتتبع الكتب ، وعلم من علم الناس ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب . وقد روى الرواة هذه القصة إلى آخرها . وهذا يدل على أن أهل الكتاب من العرب كانوا يعرفون السريانية والعبرانية . وبما أنهم تعلموا العبرانية لكونها لغة كتبهم الدينية ، فيحتمل أنهم ترجموا بالعربية من كتبهم المقدسة العبرانية ما اقتضى ترجمتَه لنشر تعاليمهم الدينية ودعوة الناس من الكفار والمشركين إلى دينهم .[1]

وبالإضافة إلى إلمامهم بالسريانية والعبرانية كان لدى بعض من العرب إلمام بالحبشية أيضا . وقد يكون ذلك بسبب تجارة الرقيق من بلاد الحبشة وتواجد عدد كبير من الأحباش في مدن الحجاز ولنفوذ النجاشي ملك الحبشة في بلاد اليمن ، أضف إلى ذلك ما كان يجري بين المنطقتين من التبادل التجاري . فكان أهل مكة بمن فيهم الرسول عليه الصلاة

[1] الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله وسننه وأيامه لأبي عبد محمد بن إسماعيل البخاري ، بتحقيق محب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقي وقصي محب الدين الخطيب جـ ١ ص ١٤ ، ابن هشام السيرة النبوية جـ ١ ص ١٩١

والسلام قد سمعوا وعرفوا حول طبيعة النجاشي وتعامله مع الناس وأخلاقه الحسنة ، ولولا ذلك لما أمر الرسول أتباعه بالهجرة إلى بلاده . ومما يدل على معرفة بعضهم اللغةَ الحبشيةَ ما اشتهر في كتب السيرة من أن جعفر بن أبي طالب الذي كان من المهاجرين الأوائل إلى الحبشة كلم النجاشي مباشرة نيابة عن أصحابه من المهاجرين المرافقين له حيث لم يرد في هذه القصة ذكر ترجمان رغم طول رواياتها . وليس من المستبعد أن يكون غيرُ جعفر من أهل مكة أيضا عرفوا اللغة الحبشية لأسباب ذكرناها آنفا .[1]

وبالإضافة إلى إلمام أهل الحجاز وبخاصة اليهود منهم بهذه اللغات الثلاث وترجمتهم منها إلى العربية وبالعكس في ذلك العصر ، كان بعضهم يعرفون الفارسية أيضا وكانوا يترجمون بينها وبين العربية أثناء رحلاتهم إلى بلاد الفرس أو عند قدوم الأفراد والوفود من الفرس إليهم . وقد رأينا فيما سبق أن عدي بن زيد وابنه زيداً كانا يتقنان العربية والفارسية وكانا يترجمان لكسرى في ديوانه . ونجد في عصر الرسول أيضا أن بعضا من أهل مكة عرفوا اللغة الفارسية وكان يطلبهم أهل مكة لأداء مهمة الترجمة عند قدوم الفرس إليهم . فهذا ما حصل عندما زار الرسولَ عليه السلام سلمانُ الفارسي رضي الله عنه أولَ ما زاره بعدما سمع عن بعثته . فطُلِبَ تاجرٌ يهودي ليترجم بينهما ، وخان اليهودي في الترجمة ، وكشف الله عن خيانته للرسول عليه السلام عن طريق جبريل . وإليكم هذه القصة الطريفة بكاملها كما رواه الحلبي في سيرته :

قال سلمان : وكان عليه الصلاة والسلام عليه شملتان ، وهو جالس في أصحابه ، فسلمت عليه ثم ابتدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف لي ، فألقى الرداء عن ظهره فنظرت إلى الخاتم فعرفته ، فأكببت عليه أقبله وأبكي ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : تحول ، فتحولت بين يديه ، فقصصت عليه حديثي ، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : فأعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُسمع ذلك أصحابَه أي وفي شواهد النبوة . لما جاء سلمان إلى النبي صلى الله عليه وسلم لم يفهم النبي صلى الله عليه وسلم كلامه ، فطلب ترجمانا ، فأُتِيَ بتاجر من يهود كان يعرف الفارسية والعربية ، فمدح سلمان النبي صلى الله عليه وسلم وذم اليهود بالفارسية ففضب اليهودي وحرّف الترجمة ، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم : إن سلمان يشتمك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هذا الفارسي جاء

[1] ابن كثير: البداية والنهاية جـ ٤ ص ١٧٣

ليؤذنا ، فنزل جبريل وترجم عن كلام سلمان ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم ذلك أي الذي ترجمه له جبريل لليهودي ، فقال اليهودي : يا محمد إن كنت تعرف الفارسية فما حاجتك إلي ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما كنت أعلمها من قبل ، والآن عملني جبريل ، أو كما قال . فقال اليهودي : يا محمد قد كنت قبل هذا أتهمك والآن تحقق عندي أنك رسول الله فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل : علم سلمان العربية ، فقال : قل له ليغمض عينيه ويفتح فاه ، ففعل سلمان فتفل جبريل في فيه ، فشرع سلمان يتكلم بالعربي .[1]

وتدل هذه القصة في جانب على إلمام واسع لدى اليهود بلغات مختلفة واهتمامهم بتعلمها في ذلك العصر، ولم تكن الفارسية من لغات كتبهم الدينية ، ولكنهم كانوا يتعلمونها لمزاولة أعمالهم التجارية خارج حدود المناطق العربية . وفي جانب آخر تدل هذه القصة على خيانة بعض المترجمين أو التراجمة وتحريفهم في الترجمة اثناء أداء مهمتهم ، فلولا نزول جبريل وإعلامه النبي بحقيقة أمر هذا اليهودي لكانت النتيجة عكس ما حصل في نهاية القصة بحيث أسلم سلمان الفارسي وأسلم اليهودي هو الآخر لما رأى من معجزة الرسول التي كشف عن طريقها خيانة اليهودي في الترجمة كما رأينا في القصة آنفا .

وما كان يثق الرسول عليه السلام باليهود في معاملاته وعهوده واتفاقياته معهم بسبب تدبيرهم المؤامرات ضده ونقضهم عهوده ، فما كان يومنهم كما صرح بذلك في بعض الأحاديث ، وكان قد جربهم بنفسه ، وأكد عليه القرآن أيضا في آيات كثيرة . وبعد هذا الحادث المذكور أعلاه ازداد الرسول حذرا وحيطة أثناء تعامله معهم . فلم يعتمد عليهم في ترجمة اتصالاته مع الأمراء والملوك في سبيل دعوته إياهم إلى الإسلام بلغاتهم . وكانت الحاجة ماسة إلى من يتعلم هذه اللغات من الصحابة ويكتب كتب الرسول إلى ملوك الدول المجاورة ويترجم كتبهم الواردة إليه . فأمر الرسول زيد بن ثابت أن يتعلم لغة اليهود ، فتعلمها ، وكتب للنبي (صلى الله عليه وسلم) كتبه التي أرسلها إلى الأمراء والملوك ، وقرأ عليه الكتب التي وردت إليه منهم . واللغة التي روي أن زيد بن ثابت تعلمها هي السريانية ، رغم أن لغة اليهود هي اللغة العبرانية وليست سريانية ، فيحتمل أن زيدا تعلم

[1] علي بن برهان الدين الحلبي: إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون المعروف بالسيرة الحلبية جـ ١ ص ٢٩٨ (أخذاً من المكتبة الشاملة)

اللغتين الاثنتين لاحتياج الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى ذلك كما أشار إليه ابن حجر في فتح الباري ، ويحتمل أن الرواة قد التبس عليهم الفرق بين اللغتين فسموها السريانية لكثرة شيوعها ولكونها لغة العلم والحضارة قبل ظهور الإسلام .

وعلى كل حال ، تعلم زيد بن ثابت لغة اليهود في خمسة عشر يوما أو سبعة عشر يوما حسب ما جاء في روايات مختلفة . وكان زيد غلاما من بني النجار أُتي به النبيَ (صلى الله عليه وسلم) فأُعجب به واستقرأه من القرآن فقرأ ، فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام : " تعلم كتاب يهود فاني ما آمن يهود على كتابي" . فتولى زيد كتابة كتب الرسول عليه السلام وصحائفه إلى الأمراء والملوك وقراءة كتبهم الواردة إليه بلغاتهم ، أي أنه ترجمها للرسول عليه الصلاة والسلام بالعربية . فيمكن القول بأن زيد بن ثابت كان المترجم الرسمي للرسول عليه الصلاة والسلام وكان أول ترجمان رسمي لأول دولة إسلامية قامت في تاريخ الإسلام .[1]

وتدل هذه القصة على أهمية الترجمة والمترجمين في نظر الرسول عليه السلام حيث أمر زيد بن ثابت بتعلم اللغة السريانية أو العبرانية أو كليهما ، فكلمة "الأمر" تكفي للدلالة على إيلائه عليه السلام الترجمة وتعلم اللغات هذه الأهمية البالغة للتواصل والتراسل مع الملوك والأمراء . كما تدل هذه القصة على مكانة المترجمين في العلاقات السياسية والدبلوماسية بين دولتين أو مملكتين أو حكومتين .

أما تعلمُ زيدٍ لغةً جديدةً أي لغة اليهود في مثل هذه المدة القصيرة وهي حوالي نصف شهر ، فهذا أمر يدهش العقل وبخاصة لأن التجارب قد أثبتت أن تعلم الإنسان لغة جديدة وإتقانه لها ليس أمرا سهلا وميسرا إلى حد أن يتحقق له ذلك في مدة أسبوعين . فالاحتمال القوي أن الرسول عندما أمره بذلك دعا له أيضا أن يستطيع تعلمها في فترة قصيرة كهذه لاحتياجه عليه السلام إلى من لديه إلمامٌ بهذه اللغة بشكل عاجل . وعلى هذا يمكن عد هذا الأمر نوعا من معجزات الرسول . ويحتمل أيضا أن يكون لزيد إلمام

---

[1] بدر الدين محمود بن أحمد العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري (تحقيق: عبد الله محمود محمد عمر) جـ ٢٤ ص ٣٩٧ ، وأحمد بن علي بن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري جـ ١٣ ص ١٩٧ ، وعلي بن خلف بن عبد الملك بن بطال: شرح صحيح البخاري (تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم) جـ ٨ ص ٢٦٩

سابق بهذه اللغة لتعايش اليهود مع أهالي المدينة قبل بعثة الرسول وحتى بعد هجرته إليه لسنوات طويلة ، وربما يَسّرَ له هذا الأمرُ تَعَلُّمَه لغة اليهود تعلما سريعا ، إلا أن عدم الإشارة إلى إلمامه السابق بلغة اليهود يُضعف هذا الاحتمالَ ويقوي الاحتمال السابق .

ولما تعلم زيد بن ثابت لغة اليهود ، وحان الوقت المناسب لمكاتبة الأمراء والملوك ، أمره الرسول عليه السلام بإعداد الكتب ، وجهز الوفود من الصحابة لإرسالها إليهم . فبعث دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الروم ، وبعث عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك فارس ؛ وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة ؛ وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك الإسكندرية ؛ وبعث عمرو بن العاص السهمي إلى جيفر وعياد ابني الجلندي الأزديين ملكي عمان ؛ وبعث سليط بن عمرو أحد بني عامر بن لؤي إلى ثمامة بن أثال وهوذة بن علي الحنفيين ملكي اليمامة ؛ وبعث العلاء ابن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدي ملك البحرين ؛ وبعث شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ملك تخوم الشام .[1]

ولما سلم دحية بن خليفة الكلبي كتاب رسول الله إلى قيصر ملك الروم ، عرف قيصر أن الرسول عليه السلام هو النبي الذي جاء ذكره في الكتب السماوية السابقة ، وصدق هو وبعض أساقفته بعثةَ الرسول ، ولكنه سرعان ما تقهقهر واستسلم للرهبان والأساقفة الذين جمعهم لاستشارتهم في هذا الأمر ، والقصة معروفة مسجلة في كتب السيرة والتاريخ . والجدير بالذكر هنا أن هرقل طلب أحدا من قوم الرسول ليسأله عنه ، فأحضروا أبا سفيان الذي كان بالشام في رحلته التجارية في تلك الأيام ، فحضر أبو سفيان ديوان قيصر الذي سأله عن الرسول المبعوث فيهم، ورد أبو سفيان على جميع أسئلته ، وكان بينهما ترجمان يترجم ما جرى بينهما من المحادثة ، وقد ذكره أبو سفيان في روايته لهذه القصة .[2]

ولما وصل رسول رسول الله عليه السلام حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك الإسكندرية ، أرسل المقوقسُ إلى حاطب ليلة وليس عنده أحد إلا ترجمان له يترجم بالعربية ، فقال له : ألا تخبرني عن أمور أسألك عنها وتصدقني ، فإني أعلم أن صاحبك قد تخيرك من بين أصحابه ؛ حيث

---

١ ابن هشام: السيرة النبوية جـ ٢ ص ٦٠٧

٢ ابن حجر: فتح الباري جـ ٨ ص ٦٤

بعثك، فقال له حاطب : لا تسألني عن شيء إلا صدقتك ، فسأله عن أشياء أجاب عنها حاطب ، فاطمأن قلب المقوقس بما سمع وأيقن أنه هو الرسول الذي جاء ذكره في الكتب السماوية السابقة ، ولكنه لم يسلم خوفا من القبط . وكان له ترجمان مثل غيره من الملوك قام بترجمة المكالمة بينهما .[1]

وقد سبق أن ذكرت أن كثيرا من الكلمات الأعجمية كانت شائعة في العصر الجاهلي لدواع عديدة ، وقد أوردت أمثلة منها . واستمرت هذه الظاهرة في هذا العصر أيضا ، بل كثر استعمال مثل هذه الكلمات الأعجمية في كلام العرب ، وبخاصة حين بدأت الوفود تقدم على الرسول عليه السلام من داخل شبه الجزيرة العربية ومن خارجها ، وبدأ فتح المسلمين لمناطق واسعةٍ ، وتوسعت رقعة الدولة الإسلامية وشملت مناطقَ غير عربية ، وكان من مستلزمات هذه المستجدات والتطورات تغلغلُ كثير من الكلمات الجديدة من اللغات الأعجمية مثل الفارسية والقبطية والحبشية وغيرها إلى اللغة العربية . ومع أن هذه الظاهرة قامت على قدم وساق في عصر الخلافة الأموية ثم العباسية بسبب نفوذ الفرس والأتراك في شؤون الدولة والجند والإدارة ، إلا أننا نلمسها في هذا العصر في مرحلتها البدائية . ومن هذا القبيل ما يروى من استعمال الرسول بعضَ الكلمات الفارسية مثل السور بمعنى الطعام أو الضيافة . وقد أشار إلى ذلك الملا علي القاري في مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح حيث قال : "فصاح النبي : "يا أهل الخندق إن جابرا صنع سورا" ، بضم فسكون واو ، أي : طعاما ، وفي القاموس : السور : الضيافة ، فارسية شرفها . . . قال النووي : السور بضم السين غير مهموز هو الطعام الذي يدعى إليه ، وقيل : الطعام مطلقا ، وهي لفظة فارسية وقد تظاهرت أحاديث صحيحة بأن رسول الله تكلم بالألفاظ الفارسية" .[2]

ولا بد من الإشارة بهذا الصدد إلى ما يُوثَرُ عن بعض الصحابة من تفسير بعض الكمات الأعجمية الواردة في القرآن وشرحها باللغة العربية . ونعرف أن قضية وجود كلمات أعجمية في القرآن الكريم ما زالت مثار نزاع وخلاف بين العلماء والباحثين قديما وحديثا ، ولا يسع هذا المكان لذكرها

---

[1] سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء (تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين علي) م ١ جـ ٢ ص ٣٩٣

[2] علي بن سلطان محمد القاري: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (تحقيق: الشيخ جمال العيتاني) ، جـ ١١ ص ١٥ ، وابن حجر: فتح الباري جـ ٦ ص ٢١٢ ، وانظر: صلاح الدين المنجد: المفصل في الألفاظ الفارسية المعربة

. ويذكر أن ابن عباس رضي الله عنه الذي دعا له الرسول عليه السلام بالبركة في علمه وفهمه كان يرى أن القرآن يضم عددا من الكلمات الأعجمية وأنه نسبها إلى لغات أخرى كالسريانية والحبشية والنبطية وغيرها ، بينما تفيد بعض الروايات أنه رفض وجود أي كلمة أعجمية في القرآن ، فرُوي عنه قوله : ليس فيه لغة إلا لغة العرب ، وربما وافقت اللغة اللغات .[1] ومهما يكن موقف ابن عباس من وجود الكلمات الأعجمية في القرآن ، فإن الأمر الذي لا شك فيه هو أن الصحابة كانوا يفسرون الكلمات التي جاءت في القرآن ولم يفهمها عامة المسلمين ، وكان بعض منها من لغات أخرى غير عربية من حيث أصلها ؛ لأنها كانت أعجمية أصلا وصارت عربية بعد اندماجها فيها .

وقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي جمرة قوله أنه كان يترجم لابن عباس . وذكر الإمام ابن حجر في فتح الباري احتمالين حول ترجمة أبي جمرة لابن عباس ، فقال : "أصل الترجمة التعبير عن لغة بلغة ، وهو عندي هنا أعم من ذلك وأنه كان يبلغ كلام بن عباس إلى من خفي عليه ويبلغه كلامهم إما لزحام أو لقصور فهم . قلتُ : الثاني أظهر لأنه كان جالسا معه على سريره ، فلا فرق في الزحام بينهما الا أن يُحمل على أن ابن عباس كان في صدر السرير وكان أبو جمرة في طرفه الذي يلي من يترجم عنهم . وقيل إن أبا جمرة كان يعرف الفارسية فكان يترجم لابن عباس، بها قال القرطبي ."[2] ومع أن ابن حجر رحمه الله رجح المعنى الأعم للترجمة وهو توضيح ابن جمرة وتفسيره لكلام ابن عباس ، ولكن لو ثبت أن أبا جمرة كان يعرف الفارسية وكان يأتي الناسُ إلى الصحابة من مشارق الأرض ومغاربها لاغتراف علم الكتاب والسنة وتعلم أحكام الشريعة المطهرة منهم مباشرة فما المانع في حمل الكلمة على معناها الاصطلاحي الظاهر وهو الترجمة من لغة إلى لغة .

الباب الثاني : الترجمة العربية في عصر الخلافة الراشدة :

ولما جاءت الخلافة الراشدة واشتدت الحروب والمعارك بين العرب وغيرهم ، وكثر ورود الأسرى من مناطق مختلفة ، وتتابع قدوم الوفود تترى إلى مركز الخلافة الإسلامية أي المدينة المنورة ، ودخل الناس في الإسلام أفواجا ، اتخذ الخلفاء تراجمة لهم ، مثلما فعل الرسول عليه السلام وملوك

---

١ عبد الله ابن عباس: اللغات في القرآن (تحقيق: صلاح الدين المنجد) ص ١٩

٢ ابن حجر: فتح الباري جـ ١ ص ١٥٨

البلاد الأخرى قبلهم . ويذكر أن الخلفاء الراشدين كانوا يتخذون ترجماناً واحداً . فاتخذ الخلفية الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه لنفسه ترجماناً خاصاً كان يترجم له بكل مناسبة يحتاج فيها إليه .[1] وجاء في بعض الروايات أن عبد الرحمن بن حاطب بن أبي بلتعة كان يترجم لعمر رضي الله عنه . وأبوه حاطب بن أبي بلتعة هو نفس الصحابي الذي أرسله الرسول عليه السلام إلى المقوقس مع رسالته ، وقد سبقت الإشارة إلى قصته .

ويروى أن علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف كانوا مع عمر ذات يوم إذ جاءت امرأة ، فسأل عمر : ماذا تقول هذه ؟ لأنها تكلمت بلغة أعجمية ولم يفهم عمر كلامها ، فترجم عبد الرحمن بن حاطب بن أبي بلتعة مترجما عنها لعمر .[2]

ونجد قصة أخرى لعمر حيث ترجم ترجمانٌ بينه وبين الجاثليق . والقصة هي أن عمر رضي الله عنه خطب بالجابية ، والجاثليق ماثل بين يديه ، والترجمان يترجم ، فقال عمر : من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، فقال الجاثليق : إن الله تعالى لا يضل أحدا ، فقال عمر : ما تقول ؟ فقال الترجمان : لا شيء ، ثم عاد في خطبته ، فلما بلغ من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، قال الجاثليق : إن الله تعالى لا يضل أحدا ، فقال عمر : ما تقول ؟ فأخبره ، فقال : كذبت يا عدو الله ، ولولا ولت عهد لك لضربت عنقك ، بل الله خلقك والله أضلك ، ثم يميتك ، ثم يدخلك النار إن شاء الله ، ثم قال : إن الله عز وجل لما خلق آدم عليه الصلاة والسلام نثر ذريته ، فكتب أهل الجنة وما هم عاملون ، وأهل النار وما هم عاملون ، ثم قال : هؤلاء لهذه ، وهؤلاء لهذه ، وقد كان الناس تذاكروا القدر فافترق الناس وما ينكره أحد .[3]

تدل هذه القصص على اهتمام الخلفاء الراشدين باتخاذ التراجمة لهم . ومثلما اتخذوا تراجمة لهم ، اتخذ قوادهم الذين قادوا جيوش المسلمين تراجمة لهم لاحتياجهم إليهم في حملاتهم العسكرية . فلما نزل جيش المسلمين بالإسكندرية بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه قال عظيم من عظمائهم : أخرجوا إلي رجلا أكلمه ويكلمني . فخرج إليه عمرو مع

---

١ المصدر السابق

٢ العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري جـ ٢٤ ص ٣٩٨ ، وفتح الباري جـ ١٣ ص ١٩٧

٣ جعفر بن محمد بن الحسن الفريابي: كتاب القدر ص ٦٤

ترجمان له وخرج عظيمهم مع ترجمان له . ثم جرت بينهما مكالمة وترجمان كل منهما يترجم له .[1] ومن الطريف في هذه القصة أن كلا من الطرفين اتخذ ترجمانا خاصا له دون اعتماد أحدهما على ترجمان الآخر، وهذا يدل على زيادة الحيطة والحذر أثناء لقاء العدو ، ويدل على الحنكة السياسية لعمرو بن العاص الذي فتح الله على يديه مصر وأدخلها في حواضر المسلمين .

ولما أسلم الهرمزان أرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه جيشا من المسلمين إلى فارس لمحاربة كسرى واستعمل عليهم النعمان بن المقرن رضي الله عنه وحشر المسلمين معه . فانطلقوا يسيرون ولما كانوا بأرض العدو خرج عليهم عامل لكسرى في أربعين ألف رجل حتى وقفوا على نهر، وخاطب المسلمين قائلا : يا أيها الناس أخرجوا إلينا رجلا يكلمنا ، فأخرجوا إليه المغيرة بن شعبة ، وكان رجلا قد اتجر وعلم الألسنة ، فكلمه ، والقصة طويلة .[2]

ولما دارت رحى الحرب بين جيش المسلمين وجيش الروم في الطبرية، وطلب الرومان من المسلمين الخروج من أرضهم الخصبة ، رد عليهم أبو عبيدة رداً مفحماً ، فطلبوا من المسلمين رجلا ليكلموه حول الصلح بينهم . فأرسل إليهم أبو عبيدة معاذ بن جبل ، فأتاهم على فرس له، فلما دنا منهم نزل عن فرسه ، ثم أخذ بلجامه وأقبل إليهم يقوده ، فقالوا لبعض غلمانهم : انطلق إليه فأمسك له فرسه ، فجاء الغلام ليفعل، فقال له معاذ : أنا أمسك فرسي ، لا أريد أن يمسكه أحد غيري ، وأقبل يمشي إليهم فإذا هم على فرش وبسط ونمارق تكاد الأبصار تغشى منها فلما دنا من تلك الثياب قام قائما فقال له رجل منهم : أعطني هذه الدابة أمسكها لك وادن أنت فاجلس مع هذه الملوك مجالسهم ، فإنه ليس كل أحد يقدر أن يجلس معهم وقد بلغهم عنك صلاح وفضل فيمن أنت منه فهم يكرهون أن يكلموك جلوسا وأنت قائم ، فقال لهم معاذ والترجمان يفسر لهم ما يقول : إن نبينا عليه السلام أمرنا أن لا نقوم لأحد من خلق الله ولا يكون قيامنا إلا لله في

---

[1] أحمد بن أبي بكر ابن إسماعيل البوصيري: إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة (تحقيق: أبو عبد الرحمن عادل بن سعد وأبو إسحق السيد بن محمود بن إسماعيل) جـ ٦ ص ٥١١ ، وعلي بن الحسن الشافعي المعروف بابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق (تحقيق: محب الدين أبو سعيد عمر العمروي) ج ٤٦ ص١٥٩

[2] محمد بن فتوح الحميدي: الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم (تحقيق: علي حسين البواب) جـ ٣ ص ٤٢١ ، وأحمد بن حسين بن علي البيهقي: السنن الكبرى (تحقيق: محمد عبد القادر عطا) جـ ٩ ص ١٣٩

الصلاة والعبادة والرغبة إليه . [1]

ولما نشبت الحرب بين جيش المسلمين وجيش الروم في الشام ، أرسل باهان عاملُ ملك الروم على الشام رسوله إلى المسلمين للمصالحة معهم . وقصة هذا الرسول الرومي كما رواها المؤرخون هي أنه لم يمكث حتى حضرت الصلاة ، فقام المسلمون يصلون صلاتهم فلما قضوها قال ذلك الرومي : هذا الليل قد غشينا ولكن إذا أصبحتُ غدوتُ إلى صاحبنا إن شاء الله ، وجعل ينظر إلى رجال من المسلمين يصلون وهم يدعون الله ويتضرعون إليه وجعل ما يفيق وما يصرف بصره عنهم فقال عمرو : إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ، فقال أبو عبيدة : كلا والله إني لأرجو أن يكون الله قد قذف في قلبه الإيمان وحببه إليه وعرفه فضله ، أوَ ما تنظر إلى نظره إلى المصلين ، ولبث الرومي بذلك قليلا ، ثم أقبل على أبي عبيدة ، فقال : أيها الرجل أخبرني متى دخلتم في هذا الدين ومتى دعوتم الناس إليه ؟ فقال أبو عبيدة : دُعينا إليه منذ بضع وعشرين سنة ، فمنا من أسلم حين أتاه الرسول ومنا من أسلم بعد ذلك ، فقال : هل كان رسولكم أخبركم أنه يأتي من بعده رسول ؟ قال : لا ولكنه أخبرنا أنه لا نبي بعده ، وأخبرنا أن عيسى بن مريم قد بشر به قومه . قال الرومي : وأنا على ذلك من الشاهدين إن عيسى ابن مريم قد بشرنا براكب الجمل ، وما أظنه إلا صاحبكم ، ثم قال : أخبرني عن قول صاحبكم في عيسى ، فقال له أبو عبيدة : قول صاحبنا فيه قول الله تعالى فيه وهو أصدق القائلين وأبرّهم ، قال الله تعالى : (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) [2] ، وقال تعالى : (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) [3] إلى قوله: (لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون) [4] ، فلما فسر له الترجمان ذلك وبلغ هذا المكان قال : أشهد أن هذه صفة عيسى ، وأشهد أن نبيكم صادق ، وأنه الذي بشر به عيسى وأنكم قوم صدق ، وقال لأبي عبيدة : ادع لي رجلين من أول أصحابك إسلاما ، وهما فيما ترى

---

[1] الكلاعي الأندلسي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ، م ٢ جـ ١ ص ١٩٢

[2] آل عمران ٣ – ٥٩

[3] النساء ٤ – ١٧١

[4] النساء ٤ – ١٧٢

أفضلُ مَن معك . فدعا أبو عبيدة معاذَ بن جبل وسعيدَ بن زيد بن عمرو بن نفيل ، فقال له : هذان من أفضل المسلمين فضلا ، ومن أولهم إسلاما . فقال لهما الرومي ولأبي عبيدة : أتضمنون لي الجنة إن أنا أسلمت وجاهدت معكم . فقالوا له : نعم إن أنت أسلمت واستقمت ولم تغير حتى تموت وأنت على ذلك فإنك من أهل الجنة . قال : فإني أشهدكم أني من المسلمين . فأسلم وفرح المسلمون بإسلامه وصافحوه ودعوا له بخير .[1]

فرأينا في هذه القصة كيف قام الترجمان الصادق الأمين بأداء واجبه أثناء هذه المكالمة ؛ ولو كان الترجمان غير أمين ما صارت النتيجة إلى ما صارت وما أسلم ذلك الرومي . وقد سبق أن رأينا كيف خان اليهودي في ترجمته لما جاء سلمان الفارسي إلى الرسول عليه السلام وجرت المكالمة بينهما .

ويتضح من هذه الأمثلة أن الترجمة ازدادت أهمية في هذا العصر الذي اشتدت فيه وتيرة الحروب وتتابعت الفتوحات ، فكلما شن المسلمون غارة ضد أعدائهم سبق الحربَ نوعٌ من الاتصالات الدبلوماسية بين الطرفين للتوصل إلى صلح أو اتفاقية بينهما لتفادي سفك الدماء ، وفي كثير من الأحيان نجحت هذه المبادرات الدبلوماسية في إبرام اتفاقية بين الطرفين . وكان للتراجمة دور رئيسي في هذه الاتصالات الدبلوماسية ، فكان يعتمد عليهم الأمراء والملوك ليمثلوهم أمام أعدائهم ، وأن يسعوا إلى تفادي الحرب وحفظ الدماء من سفكها .

الخاتمة :

درسنا فيما سبق نشاط الترجمة من العربية وإليها في عصر الرسول عليه السلام وعصر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم مع إلقاء الضوء على ما شهده العصر الذي سبق ظهورَ الإسلام من حركة النقل والترجمة . ورأينا كيف أسهمت الترجمة في توسيع آفاق العلم والمعرفة وكيف نشطت في المراكز العلمية القائمة قبل الإسلام في الإسكندرية ومدن العراق والشام . ولما جاء الإسلام وقامت الدولة الإسلامية الأولى في شبه الجزيرة العربية أدت الترجمة مهمة تختلف من مهمتها التي أدتها قبل هذا العصر . فأصبحت الترجمة في هذا العصر وسيلة من وسائل الدعوة الإسلامية وأداة رئيسية للتواصل والتراسل الذي جرى بين الرسول عليه السلام وملوك الدول القائمة

---

[1] الكلاعي الأندلسي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء م ٢ جـ ١ ص ٢٤٩

آنذاك . وازدادت في هذا العصر أهمية التراجمة الذين كانوا حلقة الوصل بين العرب وغيرهم في حملاتهم العسكرية ولقاءاتهم مع الأمراء والملوك .

ورأينا أن الترجمة الأمينة السليمة أفادت المسلمين كثيرا في مناسبات عديدة مثلما حصل مع رسول باهان عاملِ قيصر بالشام ، حيث أسلم رسولُه الرومي بعد ما شاهد المسلمين في صلاتهم وتضرعهم أمام ربهم وحاورهم حول عقيدتهم في المسيح عليه السلام . فالترجمة السليمة التي قام بها الترجمان بينه وبين المسلمين كان أهم وسيلة لدخوله في الإسلام . وهذا ما حصل في قصة دخول الهرمزان في الإسلام . بينما تؤدي الترجمة السيئة المحرفة لمفهوم النص المترجم منه إلى نتائج وخيمة كما قد رأينا في قصة سلمان الفارسي الذي قابل الرسولَ عليه السلام والترجمان اليهودي الذي خان في ترجمته له ؛ حتى شك الرسول في نية سلمان ولمس خطرا منه ، ولكن لم يلبث أن أرسل الله جبريل لينبه الرسول إلى أن اليهودي قد خان وحرف في ترجمته ، وأعلمه بما قصد سلمان من كلامه الأعجمي . وهذا التصحيح في الترجمة في وقته المناسب أثمر حيث أسلم سلمان وأسلم اليهودي هو الآخر بعد أن رأى من معجزة الرسول عليه السلام .

وأما الفتور الذي أصاب الترجمة العلمية والفنية لمختلف العلوم والمعارف من لغة إلى أخرى في هذا العصر، فيمكن القول إن الظروف الطارئة والتطورات المستجدة في شبه الجزيرة العربية بعد مجيء الإسلام اقتضت استخدام الترجمة لأغراض أخرى غير الأغراض العلمية ، فاستخدمت الترجمة لكتابة الكتب والخطابات للأمراء والملوك وإجراء الاتصالات الدبلوماسية معهم وبخاصة أثناء الغزوات والحروب . ولكن هذه الفترة التي فترت خلالها الترجمة العلمية طوال عصر الرسول والخلافة الراشدة بشرت بثورة علمية عظيمة ونشاطات واسعة في مجال النقل والترجمة في العصر العباسي بدءا من مطلع القرن الثاني الهجري ، ولم ير التاريخ البشري مثل هذه الحركة للنقل والترجمة بين مختلف اللغات من قبل ، فلما فتحت الأمصار واستقرت الأحوال وعادت المياه إلى مجاريها ، التفت المسلمون إلى مختلف العلوم والفنون ، واعتنوا بها بحثا ودراسة وتصنيفا وتأليفا ونقلا وترجمة ، فلما قامت الخلافة العباسية قامت معها حركة علمية واسعة أسهمت حركة الترجمة في نموها أيما إسهام ، بدءا من الخليفة العباسي الأول أبي جعفر المنصور ووصولا إلى ذروة هذه الثورة العلمية في عصر الخليفة هارون الرشيد وابنه الخليفة المأمون .

صور و أوضاع

الجهالة أو الغباوة ؟!

الأستاذ السيد محمد واضح رشيد الحسني الندوي

إن تجربة أوربا مع الدين ، ومع رجال الدين ، أو مع الكنيسة ورجال الكنيسة ، تختلف عن تجربة الشرقيين ، ويرجع ذلك أساسياً إلى سلوك رجال الكنيسة في عصر الظلام ، ورد الفعل الذي كان نتيجة لهذا السلوك في عصر النهضة ، وتختلف هذه التجربة عن تجربة المسيحيين في المناطق الأخرى حيث لم يفرض حكم الكنيسة ، ويختلف موقف الكنيسة في المناطق الأخرى عن موقف الكنيسة في أوربا ، وهذه حقيقة لا ينكرها من يدرس دور الكنيسة في العصر الذي يعتبر عصر الظلام .

إن تعبير عصر الظلام يدل على دور الكنيسة في سلب الحريات ، وحتى في كسب العلم ، واتخاذ إجراءات قاهرة ضد من يخالف القيود المفروضة من قبل الكنيسة ، وقد كتب الكاتب العربي المعروف عباس محمود العقاد في مقاله عن فولتير الذي يعدّ من رواد الحرية أن فولتير لم يكن من أعداء الدين؛ بل كان من أعداء رجال الكنيسة ، وموقف الكنيسة في القرون المظلمة معروف يعترف به كل من يعتنق الدين المسيحي ، فكان هذا الموقف من قبل الكنيسة الذي ترجع مسئوليته إلى تسلم الكنيسة السلطة الكاملة ،ولا يستثنى منها الحكام ، وتدل على ذلك الحروب الصليبية التي فرضها على أوربا راهب فاتبعه الحكام في أوربا كلها ، فلم يجرأ أحد منهم على أن يبدي رأيه ضد هذه الحروب التي شنها راهب .

واتفق المؤرخون على أن هذه الحروب التي أدت إلى خسائر فادحة في الأرواح والممتلكات ، قد شنها راهب ، وبعد مئات من السنين التي سفكت فيها دماء ، ودمرت مناطق شاسعة ، والخسران في مقاصد الحرب ، اعترف حاكم فرنسي لويس التاسع أن الحروب لا تجدي ، و أوصى عند موته أن يختار طريق آخر غير الحرب لكسب مقاصده ، وعلى وصيته رفعت الكنيسة القيود عن العلم .

وبدخول أوربا في ميدان العلم والمعرفة والبحث ثار بعض الباحثين ضد الكنيسة؛ بل ضد الدين ، ومع الثورة على الدين بجراء تجربتهم مع الكنيسة في قرون الظلام نحو ألف سنة ، ثاروا على القيم والأدب مع الدين ، ورجال الدين وزعماء الإصلاح والدعاة إلى إصلاح النفوس ، فأكب أهل العلم والمعرفة

على كسب المعرفة والرقي في ميدان الاختراع والاكتشاف والبحث عن وسائل أفضل للحياة والحرية المطلقة في منهج الحياة والتعامل مع الناس ، والانتقام من رجال الدين والقيم التي تقيد منهج الحياة والتعامل مع الناس ، والجوانب الروحية في الحياة ، فأصبحت أوربا راسخة في العلم والمعرفة وهي لا تزال قدوة لغيرها ، ورغم انتشار الجامعات ومدارس البحث والتحقيق في غير أوربا لا تزال أوربا في مقدمة قافلة العلم والمعرفة لاستمرار البحث والتحقيق .

تقدمت أوربا في البحث والتحقيق ، ولكن مع الأسف الشديد أن نفسيتها التي نشأت خلال الحروب وبعدها ، لم تتغير ولم تنجب أوربا في العهد الطويل مصلحاً أو مربياً في ميدان الأخلاق والأدب مع الناس ولم تغير الموقف بالنسبة للدين ورجال الدين .

وتظهر مظاهر هذه الغلبة الظلامية ، الغلبة الجاهلية حيناً بعد حين .

ومن الغريب أن هذه الغلبة غلبة العداء ضد الإسلام والمسلمين تظهر من رجال الكنيسة نفسها ويظهر تمييزها بين مختلف الأديان ورجالها .

كان موقف الباحثين في أوربا بعد أن رفعت الكنيسة الحظر عن العلم والمعرفة ، ينقسم إلى قسمين : قسم البحث والتفكير الحر ، والاعتماد على العقل و لا النقل وحده ، ذلك سبب تقدم أوربا في العلم والمعرفة ، فإنها تتقدم باستمرار من خلال البحث عن مجالات جديدة للعلم والمعرفة ، وبذلك تنتشر الاكتشافات في مختلف ميادين الحياة من المواصلات والاتصالات والطب والهندسة ويستفيد بها المستفيدون .

وموقف طائفة أخرى في العلم هو الهجوم على الإسلام والمسلمين وتاريخهم ، والكشف عما لا تفهمه عقولهم ، فأغرقوا المكتبات ببحوثهم المضللة لكي تتغير معرفة الأصل عن الإسلام وتاريخه ، وهؤلاء هم المستشرقون ، والكتاب المتأثرون ببحوثهم التي ظهرت في عصر النهضة ، صنفوا كتبا أحدثت في النفوس كراهية للإسلام والمسلمين ، لأن هذا الموضوع كان مقصود الكتاب ، وفرضت الكنيسة التي سمحت بكسب العلم ، هذا القصد .

واستمرت هذه الكراهية إلى هذا العصر ، وقد أشار إليه سيد قطب الشهيد عندما زار أمريكا لدراسة النظام التعليمي ، وبعثته لذلك حكومة مصر ، وكان مثقفاً بالثقافة الغربية نتيجة لنظام التعليم والتربية في مصر ، ولم يكن في ذلك الوقت تابعاً لأي حزب إسلامي أو حركة إسلامية ، وكان موضوع بحثه التعليم العصري ، ولكنه كان في كل مجلس يواجه هذه الكراهية ، فنشأ في نفسه سؤال لماذا نعاكس ؟ وذكر ما واجهه على أساس انتمائه إلى بلد مسلم .

نجد مظاهر هذه الكراهية الموروثة العفنة في هذا العصر عصر المعرفة الحرة وعصر التعامل العالمي وعصر التقاء الشرق بالغرب ومواقع الاختلاط

والامتزاج للدراسة الحرة .

ومن هذه المظاهر صدور كتب ضد السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي والشخصيات الإسلامية وصور كارتونية حيناً بعد حين مع معرفة أصحاب العلم وخاصة الذين هيئت لهم فرص الاختلاط بالمسلمين ، عن نبيهم الكريم الذي يعتبره حتى مسلم غير متدين أحب وأكرم من والده ، وعرضه أقدس من عرضه قال شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت الأنصاري :

فإن أبي ووالده وعرضي
لعرض محمد منكم وقاء

وجاء في الحديث الشريف عَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : " لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ " . وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم : " قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ " (التوبة : ٢٤) .

وهذا الحب لذات رسول الله صلى الله عليه وسلم دليل على إيمان كل مسلم ولم يتغير رغم مرور الزمن ، وفي هذا العصر المادي يشهد العالم مظاهر هذا الحب حيث تؤدي أدنى إساءة إلى ذات الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ثورة في نفوس المسلمين ،و لا يتردد حتى السوقيون الذين لا معرفة لهم عن الإسلام والمسلمين في تقديم تضحيات ، ويعتبرون ذلك شرفاً لهم .

إن كتاب سلمان رشدي أثار غضباً عالمياً وأصبح رشدي بذلك رجلاً مطروداً لا يستطيع أن يزور بلداً إسلامياً ، وقد اضطر إلى إلغاء زيارته للهند عدة مرات رغم انتمائه إلى الهند ، وتقضي الكاتبة البنغالية تسليمه نسرين حياة انعزال على كتابها " العار " .

يعلم ذلك من له أدنى علم بالحياة المعاصرة ، فإن الإعلام ينقل ردود فعل على مثل هذه الإساءة ، ولكن رغم هذا العلم تتجدد محاولات للإساءة على ذات الرسول صلى الله عليه وسلم .

فقبل سنوات نشرت جريدة " جيلندس بوستن" الدنماركية صورا كورتونية ضد ذات الرسول صلى الله عليه وسلم وأعادت نشرها عدة مرات ، ثم أساء اليميني المتطرف خيريت وائلدرس إلى شأن الرسول صلى الله عليه وسلم بمقالاته ورسومه الكاريكاتيرية المسيئة ، فأثارت هذه الإساءات ردود فعل في المسلمين وقامت مظاهرات واحتجاجات في بعض البلدان الأوربية ، وفي يناير من هذا العام(٢٠١٥م) نشرت مجلة " شارلي إيبدو " الفرنسية صورا مسيئة إلى ذات الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأثارت ردود فعل في النفوس ذهب ضحيتها عدة نفوس ، وأخيراً (٣ / مايو ٢٠١٥م) قامت بعض النفوس الثائرة بالهجوم على صالة كيرتس ول في ضاحية غارلاند من مدينة دالاس بولاية تكساس حيث عقد

معرض رسوم كاريكاتيرية عن النبي صلى الله عليه وسلم في إطار منافسة بين رساميها ، فذهب ضحيته عدة نفوس من الجانبين .

يعلم أهل الغرب هذه المشاعر ولكن لا تنقطع سلسلة الهجوم على الإسلام وخاصة ذات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتؤدي هذه الحملات المهينة إلى خسائر في الممتلكات وتذهب ضحيتها نفوس الأبرياء والفيارى .

إن هذا السلوك يدل على الغي والعناد والكراهية الدفينة في النفوس ، ولا يدل على العلم ، و إن الذين يتعمدون هذا العمل إذا أسيئ إلى ما يعتزون به في النسب والعقيدة والسلوك ، تثور حفيظتهم .

يقول بعض المفكرين في الغرب أننا نعادي الإسلام والمسلمين لأنهم يعادوننا ، وإن الإسلام خطر على الغرب ، وذلك لتجربتهم في التاريخ عندما كان المسلمون القوة العالمية في عهد الخلافة العثمانية التي كانت ملوك فرنسا وبريطانيا يطيعون الخليفة بغاية من الإكرام والإجلال والولاء، لكن أوربا انتقمت في عهد سلطانها على العالم في عهد الاستعمار عندما قامت بتغيير مجرى التاريخ ، ووجهت سائر جهودها إلى طمس معالم الإسلام ، واتخذت سائر الإجراءات لإذلال المسلمين وتشويههم ، واتخذت أقسى الإجراءات ووسائل الاستبداد ، ثم فرضت الحروب والصراعات التي أدت إلى سفك الدماء ، ولا تزال هذه السياسة جارية في مختلف أنحاء العالم .

لكن عاطفة الانتقام وحرارتها لم تخمد سائر هذه المظالم والقهر والتزوير ، فعلى ما يدل هذا السلوك؟ الجهالة أو الغباوة ؟

إن الإسلام يدعو أتباعه إلى احترام الأديان ، وفي القرآن قصص الأنبياء والمرسلين والصالحين وردت في مواضع كثيرة بل متكررة ، ولم يذكر بعض المصلحين والمنذرين بالأسماء بل يقول " لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا " [الفرقان : ٥١]

أما عيسى عليه السلام فقد ذكره القرآن بغاية من المحبة والإكرام " إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ " [آل عمران : ٥٩] وكذلك وردت آيات كثيرة في سورة المائدة والصف ومريم بشأن عيسى والسيدة مريم عليهما السلام .

فكان من حق المسيحيين أن يحملوا عاطفة الإحسان والإكرام إزاء الإسلام والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم .

ولكن يقول مثل : " إذا فقد الحياء فافعل ما شئت " .

وردُّ الإحسان بالإحسان جزء من الأدب والخلق الحسن ، فإذا فقد الإنسان القيم الخلقية والأدب فهو حر في سلوكه .

إن مثل هذه الاعتداءات على الدين وخاصة على الإسلام تطالب بأن توضع قوانين لاحترام الأديان ورجال الدين في دساتير العالم وخاصة في ميثاق حقوق الإنسان وكذلك تطالب باحترام العقيدة .

إلى الإسلام من جديد

بالإسلام أعزنا الله

بقلم : محمد فرمان الندوي

القوة والضعف كلمتان ، كثر استعمالهما في حياتنا الطبيعية ، وشاع استخدامهما في نشاطاتنا اليومية ، وقد وضع الناس لهما مقاييس ومعايير ، فكل من كان كثير العدة والعتاد ، وفير الثروة والاقتصاد ، اعتبر رفيع المنزلة ، كبير الشأن، وجُعل موضع إجلال واحترام ، وكل من كان قليل المال ، خالي الوفاض ، اعتبر مهينا ذليلا ، وظن رجلا لا يعبأ به ، هذا المقياس الانحيازي المادي لا يقبله العقل، ولا توافقه الشريعة ، بل يعارض كل المعارضة نظرية الإسلام ، فيرفضه الإسلام رفضاً باتاً ، ويقول : إن المؤمن بالله قوي ، وإن كان قليل البضاعة ، والكافر بالله ضعيف ، وإن كان يملك قناطير مقنطرة من الذهب والفضة . وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (الحج : ٣١) ، وقال : وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِن مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ (البقرة : ٢٢١) .

القوة والغلبة طبيعة هذا الدين ، والضعف والهزيمة نتيجة الكفر والشرك، كان الناس في الزمن الجاهلي يعيشون في ذل واستكانة ، لم تكن لهم عزة ترفع شأنهم ، وتعلي مكانتهم ، إذ جاء الإسلام فبدّل الجو غير الجو ، وجعل رعاة الإبل سادة العالم ، وقادة الأمم ، والذين كانوا رؤساء القبائل وصناديد العشائر من الكفار والمشركين انكمشت ظلالهم ، وخضدت شوكتهم إن كانت لهم شوكة ، ولا تصوير أدق وأشمل للجاهلية والإسلام من خطبة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه أمام ملك الحبشة ، فقد خطت خطاً فاصلاً بين القوة والضعف والغلبة والهزيمة ، وأعلن القرآن : وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ(المنافقون : ٨) .

كلما أخذ الناس بالإسلام وتعاليمه ، وتشبثوا بتوجيهاته كانوا مرفوعي الرأس ، يشار إليهم بالبنان ، وكانوا قادة وسادة ، وكانت لهم حكومات ، وقامت لهم حضارات وثقافات ، فأثروا العالم بفتوحاتهم العلمية والسياسية ، فرفرفت رايات الإسلام من أقصى العالم إلى أقصاه، وكانت الخلافة الراشدة والخلافة الأموية والخلافة العباسية والخلافة العثمانية امتداداً لهذه السعادة ، بل ثمرة لهذه الدوحة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء .

إن دراسة الإسلام بعمق وواقعية تبعث في الإنسان الثقة بالنفس ، والاعتماد على الله تعالى ، فالمسلم الحقيقي يكون مفعماً بالروحانية والعلم ، فلا يصاب بمركب النقص ، ولا يُمنى بالشعور بالاستعلاء ، لأنه يتظاهر بالإسلام وشعائره عملياً ، فيجد فيه متعته وروحه ، ويدرك فيه لذته وحلاوته ، وقد أشار إلى ذلك

إلى ذلك رسولنا العظيم محمد صلى الله عليه وسلم : ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار (متفق عليه ، عن أنس بن مالك) ، وقال : ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً (رواه مسلم ، عن العباس بن عبدالمطلب) .

العزة والغلبة لا تتحقق إلا إذا تمثل الإسلام بأتم مظاهره وأكمل أشكاله، لأن الإسلام لا يتعلق بالقلب فحسب ، بل يتشكل بالجوارح ، ويتجسد بالأعضاء ، فإذا كان هناك تمثيل في العقيدة وتفريط في العبادات كان وفاءً بجانب ، وغمطاً لجانب آخر ، وهذا السلوك لا يؤدي إلى الغلبة والعزة ، بل إلى الخزي والندامة ، قال تعالى : أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ (البقرة : ٨٥) .

إن الإنسانية قد أصيبت اليوم بنكبات ونكسات ، ومُنيت بمصائب كثيرة ، والسبب معلوم ، وهو أن الإنسانية إما نبذت تعاليم الإسلام وراءها ظهرياً ، أو فرّطت في العمل بها أو وزّعته في شعب مختلفة ، ولن تنجو الإنسانية البائسة من هذه التهلكة إلا بالعودة إلى ملجأها الأصيل ، كما قال مالك بن أنس رحمه الله : لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها . (كتاب المبسوط للقاضي إسماعيل المالكي) .

فالعزة مقرونة بالإسلام ، وإذا تغلغل الإسلام في أحشاء القلوب وصدقه العمل تبدلت نظرية الإنسان نحو الحياة والكون ، وساد العالم جو من الهدوء والطمأنينة ، وغشيتها سحابة من السمو الروحي ، والشرف الرباني ، وقد تجلى ذلك من قول سيدنا سلمان الفارسي الذي أبداه أمام طبقة أرستقراطية في بغداد من غير خوف ولا وجل : أأترك سنة حبيبي لهؤلاء الحمقى ، وقد قال أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إنا كنا أذل قوم ، فأعزنا الله بالإسلام ، فمهما نطلب العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله . (المستدرك على الصحيحين ، كتاب الإيمان) .

قال الله تعالى : وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ . (آل عمران : ٨٥) .

يقول العلامة الندوي : " هنا نظامان للغلبة والانتصار ، نظام طبيعي ، خلقه الله تبارك و تعالى ، وهو أن الكثرة تغلب القلة ، وأن الغنى يغلب الفقر ، فالنار تحرق، والماء يغرق ، والسم يقتل ، والترياق ينجع ، لكن هناك نظاماً آخر، وهو نظام الإيمان والعقيدة ، فإذا تصادمت الغايتان : الغاية الطبيعية والغاية الشرعية رجحت كفة الغاية الأخيرة ، فالنار تحرق ، لكن ما أحرقت إبراهيم عليه السلام " . (المسلمون وقضية فلسطين : ١٠١)

أخبار علمية وثقافية

(١) هيئة قانون الأحوال الشخصية للمسلمين (لعموم الهند)

استضافت جامعة الهداية بمدينة جي فور بولاية راجستان الجلسة الرابعة والعشرين لهيئة قانون الأحوال الشخصية لمسلمي عموم الهند ، في الفترة ما بين ٢٠ – ٢٢ من شهر مارس ٢٠١٥ م ، حضرها أعضاء الهيئة المسئولون عنها والمدعوون ، ممن بلغ عدد الأعضاء إلى ١٤٤ عضواً ، وعدد المدعووين إلى ٢٠٧ شخصاً .

عقدت جلساتها الثلاث برئاسة سعادة العلامة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي رئيس الهيئة لعموم الهند ، ونوقش فيها القضايا والمشكلات الحالية التي تعيشها الأقلية المسلمة في هذه البلاد ، وخاصة الظروف السياسية التي يواجهها المسلمون في عهد حكومة الهند الجديدة التي تتمثل فيها العصبية الهندوسية بغاية من الوضوح ، وهي تتحدى وجود المسلمين في هذه البلاد مع التمسك بشريعتهم وقانون أحوالهم الشخصية ، كما أنها توجه دعوة سافرة إلى الأمة المسلمة للعودة إلى الديانة الهندوسية ، وتقاليد آلهتهم الوثنية ، ولا يبالون في كل ذلك بما يتميز به أتباع الملة الإسلامية من الالتزام بالشريعة ، والسلوكيات العالية الرفيعة والعبادات وأركان الدين الإسلامي .

لا ريب كان اجتماع العلماء الكبار والبارعين في القانون المدني ، وأصحاب الشعور الديني ضرورة أكيدة لمواجهة الظروف في ضوء الكتاب والسنة والعلم والحكمة ومراعاة الأوضاع السياسية وما يجري في العالم اليوم من نشاطات ضد الإسلام والمسلمين .

كان من خلال التوصيات التي أصدرتها الهيئة :

١) جميع الوحدات في هذه البلاد تستحق أن تعيش فيها بالأمن والسلامة مع الالتزام بالتميزات التي تتبناها .

٢) الاحترام المتبادل لجميع الديانات والنظرات التي توجد في هذه البلاد ، والفرار من كل ما يؤدي إلى التطرف والتفرق بين سكان البلاد مع الاحترام الخالص لدستور البلاد ، مهما كانت الحكومة تنتقل من حزب إلى حزب آخر .

٣) التظاهر بالأخلاق الإسلامية ومظاهر العدل والرحمة ، وتعاليم الإنسانية التي هي ميزة المسلمين ، لكي يتأثر بها غير المسلمين ويدرسوا الإسلام وتعاليمه في مجال الإنسانية .
٤) لا مجال لأي إجبار أو إكراه في الإسلام لتغيير الدين أو الانتقال من ديانة إلى أخرى .

وقد عقدت الهيئة حفلة عامة مساء يوم الأحد ٢٢/ من مارس ٢٠١٥م في ساحة كربلاء الواسعة الأرجاء ، شهدها مآت الآلاف من الجماهير المسلمة وغيرها من الناس ، ألقى فيها كبار أعضاء وعلماء الهيئة كلمات ذات تأثير بالغ حول تمثيل الحياة الإسلامية والأخلاق الإيمانية أمام أهل الوطن ، واستلفات أنظارهم إلى ما يتميز به الإسلام وما يقدمه للإنسان من رسالة الحب والأخوة بين الناس .

وقد كان لفضيلة الشيخ محمد فضل الرحيم المجددي الندوي رئيس جامعة الهداية ورفاقه المخلصين نصيب كبير من الاهتمام الكبير في عقد الجلسة الرابعة والعشرين لهيئة الأحوال الشخصية لمسلمي عموم الهند وعقد الحفلة العامة كذلك ، كما أن رئيس الهيئة المؤقر وأمينها العام والأعضاء المسئولين عنها ، كان لهم دور رئيسي في عقد هذه الجلسة المهمة ونهايتها بنجاح كبير وتأثير جليل عميق .

(٢) ندوة علمية لرابطة الأدب الإسلامي العالمية في ولاية بهار (الهند)

قامت جامعة فاطمة للبنات في بلدة مظفرفور بولاية بهار الهند بتنظيم ندوة علمية ذات يوم واحد بإشراف رابطة الأدب الإسلامي العالمية في اليوم السابع عشر من جمادى الأخرى لعام ١٤٣٦ هـ الموافق ٧/ من شهر أبريل ٢٠١٥م .

وذلك حول عنوان (حياة العلامة الإمام الشيخ السيد ابي الحسن علي الحسني الندوي وخدماته الجليلة) ، وكان من المقرر أن يرأس الندوة سماحة العلامة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي رئيس الرابطة في الهند ودول جنوب شرق آسيا ، ولكنه لم يتمكن من الحضور نظراً إلى بعض الموانع والاشتغالات العلمية التي حالت دون ذلك .

بدئت الحفلة الافتتاحية بتلاوة آي من القرآن ، وكلمة تقديم من فضيلة الشيخ بديع الزمان الندوي ، وكلمة افتتاحية لكاتب هذه السطور الذي قام برئاسة الندوة كذلك .

وقد كان عدد المساهمين في الندوة بأوراقهم أكثر من عشرة مساهم ، اما الحاضرون في الندوة فكانوا يتجاوزون المآت .

وقد تم في المناسبة تدشين العدد الخاص من مجلة خواتين الإسلام باللغة الأردوية ، وكذلك كتاب الشيخ بديع الزمان حول سماحة العلامة الإمام الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي ، قام بتدشينه رئيس الندوة ، واسم الكتاب بالأردو : (إمام العصر مفكر إسلام حضرت مولانا سيد ابوالحسن علي حسني ندوي -- حيات وخدمات) .

وفي مساء اليوم عقد مؤتمر حول رسالة الإنسانية وإصلاح المجتمع في بلدة " سيتاماري " على مسافة مأة كيلومتر من مظفرفور ، حضره العلماء الكبار وضيوف الندوة الذين ألقوا كلمات تربوية أمام الجماهير المسلمة التي كانت تملأ الميدان الكبير الذي عقد فيه المؤتمر والذي انتهى قبل أذان الفجر بقليل ، واستفاد منه الناس معاني ومفاهيم الحياة الإسلامية التي يطالبها الإسلام من أتباعه .

وفي اليوم التالي توجهنا إلى مدينة فورنية لزيارة دارالعلوم ضياء الإسلام "بوج غاؤن " الملحقة بدارالعلوم لندوة العلماء وللحضور في احتفالها السنوي الذي عقد مساء ذاك اليوم كما قد زرنا جامعة فاطمة الزهراء للبنات التابعة لهذه المدرسة في داخل القرية وإلقاء كلمة توجيهية في الحفلة التي عقدت بالمناسبة ، وقد سبق ذلك أن قمنا بزيارة جامعة الخلفاء الراشدين في فورنية التابعة لدارالعلوم ندوة العلماء .

كان تولى ضيافة الوفد المرافق المؤلّف من فضيلة الشيخ ظفر عالم الندوي أستاذ الفقه والأصول في دارالعلوم لندوة العلماء ، والأخ العزيز محمد عبدالله الندوي وغيرهما الأخ الفاضل السيد صبا ظفر عضو مجلس النواب في ولاية بهار في منزله ، وذلك إلى يوم الجمعة ١٠/ من شهر أبريل ٢٠١٥ م ، وصلينا الجمعة في مسجد جامعة الخلفاء الراشدين ، ومن هناك توجهنا إلى محطة القطار في " كاتيار " عائدين إلى لكهنؤ حيث وصلنا في سلامة الله تعالى صباح يوم السبت ، والحمد لله على السلامة .

ندوة وطنية حول "المصادر العربية لتاريخ الهند" بجامعة دلهي

الأخ غياث الإسلام الصديقي الندوي

نظّم قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة دلهي ندوة وطنية لمدة يومين حول الموضوع "المصادر العربية لتاريخ الهند" وذلك في الفترة ما بين ٤- ٥ مارس/آذار ٢٠١٥م . وقبل افتتاح هذه الندوة ، اهتمّ القسم نفسه بعقد المحاضرة الثامنة من سلسلة محاضرات البروفيسور خورشيد أحمد فارق التذكارية بمساعدة مالية للمجلس الوطني لترويج اللغة الأردية التابع لوزارة تنمية الموارد البشرية للحكومة الهندية ، في الساعة ١٠:٠٠صباحا في قاعة المحاضرات لكلية الآداب بجامعة دلهي ، حول " اللغة العربية وآدابها في جنوب الهند" ، تحت رئاسة البروفيسور شفيق أحمد خان الندوي رئيس قسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة الملية الإسلامية بنيودلهي سابقاً ، نسّقها الأستاذ الدكتور سيد حسنين أختر ، وقام الأستاذ الدكتور محمد أكرم بتعريف الضيف المحاضر البروفيسور سيد احتشام أحمد الندوي رئيس قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة كاليكوت سابقاً ، وأبرز خدماته الملموسة في مجال اللغة العربية وآدابها ، كما ألقى مدير الندوة البروفيسور محمد نعمان خان رئيس قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة دلهي سابقاً ، ضوءاً وافياً على حياة البروفيسور خورشيد أحمد فارق وأعماله القيمة في مجال اللغة العربية وآدابها ، ثمّ قدّم البروفيسور سيد احتشام أحمد الندوي مقالته القيمة حول "مساهمة مالابار في اللغة العربية وآدابها" ، وألقى ضوءاً مستفيضاً على إسهامات علماء مالابار وخدماتهم في مجال اللغة العربية وآدابها ، فناقش البروفيسور هذا الموضوع بحثاً وتصنيفاً . ثمّ تقدّم رئيس الجلسة البروفيسور شفيق أحمد خان بكلمته الرئاسية وقام فيها بتعليقات ثمينة على هذه المقالة بالإضافة إلى إيضاح تجربته تجاه أهمية مالابار وسكانها القائمين في البلدان العربية . وأخيرا قام الأستاذ الدكتور نعيم الحسن الأثري بإزجاء كلمة الشكر والتقدير لجميع الحضور بهذه المناسبة .

ثمّ عقدت الجلسة الافتتاحية للندوة الوطنية في الساعة ١١:٣٠ صباحا في القاعة نفسها ، ترأسها البروفيسور زبير أحمد الفاروقي رئيس قسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة الملية الإسلامية سابقاً ، وأدارها البروفيسور ولي أختر الندوي رئيس قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة دلهي، وقام فيها البروفيسور محمد نعمان خان بتعريف موضوع الندوة ، واستعرض أهم الكتب العربية المؤلفة حول تاريخ الهند وثقافتها وقال : " تشتمل المصادر العربية على معلومات شاملة للهند ، ونطاقها واسع للغاية ، ولكننا مع الأسف لا نستفيد منها كما كان واجباً بسبب الإعراض عن اللغة العربية" . ثمّ قدّم البروفيسور محمّد

صلاح الدين العمري رئيس قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة علي كره الإسلامية سابقاً خطبته الافتتاحية، وسلّط الضوء على المصادر العربية التي تمّ تأليفها في الهند عبر القرون وقال: "إنّ تاريخ الهند لقديم جدّا وإنّه لفت انتباه العلماء الباحثين والمؤرخين إليه ، وفيهم عدد لابأس به من العلماء العرب الذين عبّروا عن خواطرهم تجاه الهند في كتاباتهم القيمة" . وأخيرا ألقى رئيس الجلسة كلمته الرئاسية وأثنى فيها على المسؤولين عن الندوة لاختيار هذا الموضوع وشدّد على بذل الجهود في تعريف باحثي اللغات المختلفة ولاسيما باحثي فن التاريخ بالمصادر العربية لتاريخ الهند ، ثمّ ألقى الأستاذ الدكتور مجيب أختر كلمة الشكر والامتنان .

بدأت الجلسة الأولى في الساعة ١٢:٣٠ في القاعة نفسها ، ترأسها البروفيسور بدرالدين الحافظ رئيس قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة بنارس الهندوسية سابقاً ، وأدارها الدكتور فوزان أحمد الأستاذ المشارك في قسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة الملية الإسلامية ، وقدمت فيها ثلاث مقالات ، ألقى أولاها البروفيسور شفيق أحمد خان الندوي حول "الهند كما يراها أبوريحان البيروني في كتابه بعنوان: كتاب الهند في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" وذكر فيها محتويات كتاب الهند وما يرتبط بها من رحلات ومشاهدات وملحوظات خاصة بالعقائد والعادات والتقاليد الهندية ، وألقى ثانيتها الدكتور بيرزاده بشير أحمد (جامعة كشمير)حول "ورود الإسلام في كشمير ونشره فيها في ضوء المصادر العربية" ، وثالثتها قدّمها الدكتور محمود حافظ عبد الرب مرزا الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية والفارسية بجامعة الله آباد حول "كفاح المسلمين في تحرير الهند للأستاذ عبد المنعم النمر: مصدر قيم لتاريخ المسلمين في الهند" . وأخيرا ألقى رئيس الجلسة كلمته الرئاسية وتحدّث فيها عن أهمية المصادر العربية لتاريخ الهند ، وعلّق على المقالات المقدمة وأشاد بجهود الكتّاب الهنود في هذا الصدد .

انعقدت الجلسة الثانية في الساعة ٣:٠٠ في قاعة المحاضرات بقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة دلهي ، وترأسها البروفيسور سيد كفيل أحمد القاسمي رئيس قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة علي كره الإسلامية سابقاً ، وأدارها الدكتور محمود حافظ عبد الرب مرزا ، وقدمت فيها ثماني مقالات ، ألقى أولاها رئيس الجلسة البروفيسور سيد كفيل أحمد القاسمي حول " دراسة تحليلية لكتاب ظفر الواله بمظفر وآله" ، وألقى ثانيتها البروفيسور مسعود أنور العلوي رئيس قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة علي كره الإسلامية حول "الحصن المتين في أحوال الوزراء والسلاطين: مخطوطة مهمة لأحوال سلاطين أوده ووزرائها" ، وألقت ثالثتها البروفيسورة عائشة رئيس كمال (جامعة بركت الله) حول " كتاب

الهند مصدر مهم للانثروبولوجية (علم الهند والهنود)" ، و ألقى رابعتها البروفيسور غلام يحيى أنجم رئيس قسم الدراسات الإسلامية بجامعة همدرد ، بنيو دلهي حول "مصدر عربي لتاريخ الهند: سبحة المرجان في آثار هندوستان" ، وألقى خامستها الدكتور جاويد نديم الندوي (جامعة مولانا آزاد الأردية الوطنية) حول "إذا هبت ريح الإيمان" وأهميته التاريخية"، وألقت سادستها الدكتورة هيفا شاكري الأستاذة المساعدة في قسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة الملية الإسلامية حول "مشاهدات في الهند: لأمينة سعيد الكاتبة المصرية مصدر لتاريخ الهند الحديث" ، وألقى سابعتها الدكتور سعيد بن مخاشن حول " التقاليد الاجتماعية الهندية في رحلة ابن بطوطة " ، وألقى ثامنتها الدكتور محمد سليم باللغة الإنكليزية حول "تحفة المجاهدين" . وأخيرا ألقى رئيس الجلسة كلمته الرئاسية وقام فيها بتعليقات أنيقة على المقالات المذكورة أعلاه .

وتمّ عقد الجلسة الثالثة في الساعة ١٠:٠٠ صباحا باليوم التالي في قاعة المحاضرات بقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة دلهي ، وترأسها البروفيسور حبيب الله خان في قسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة الملية الإسلامية وأدارها الدكتور رضوان الرحمن الأستاذ المشارك في مركز الدراسات العربية والإفريقية بجامعة جواهر لال نهرو ، وقدّمت فيها ست مقالات أولاها للدكتور فوزان أحمد حول "ذكر الهند في رحلة ابن بطوطة" ، وثانيتها للدكتور سميع أختر حول "المسعودي: مترجم الثقافة الهندية" ، وثالثتها للدكتورة تسنيم كوثر حول "صورة المجتمع الهندي في ضوء كتاب الهند للبيروني" ، ورابعتها للدكتور نسيم أختر الندوي حول" الهند كما تتجلى في ضوء "الثقافة الإسلامية في الهند" للشيخ عبد الحي الحسني" ، وخامستها للبروفيسور سيّد راشد نسيم الندوي حول "مؤرخ السند والهند ومكانة مؤلفاته كمصادر لتاريخ الهند" ، وسادستها للدكتور محمد قطب الدين الندوي الأستاذ المساعد في مركز الدراسات العربية والإفريقية بجامعة جواهر لال نهرو ، حول "الثورة الهندية: للشيخ فضل حق خير آبادي كمصدر رئيسي عربي لتاريخ الهند" . وأخيرا ألقى رئيس الجلسة كلمته الرئاسية وقام فيها بتعليقات قيمة على المقالات المقدمة في هذه الجلسة .

وعقدت الجلسة الرابعة في الساعة ١١:٣٠ في القاعة نفسها ، ترأسها البروفيسور سيّد راشد نسيم الندوي وأدارها الدكتور جاويد نديم الندوي ، وتمّ تقديم أربع مقالات فيها ، أولاها للدكتور عبيد الرحمن حول "أهمية المخطوطات العربية في دراسة تاريخ الهند وحضارتها" ، وثانيتها للدكتور محمد أعظم حول"الجانب الاجتماعي الهندي في ضوء كتاب "مشاهدات في الهند" ، وثالثتها للدكتور أنيس الرحمن الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية بالجامعة العالية حول "الحصن المتين في أحوال الوزراء والسلاطين: مصدر أساسي لتاريخ

أوده" ، ورابعتها للدكتور مستفيض الرحمن الأستاذ المساعد في جامعة سيلتشار ، آسام ، حول "عيون الأنباء في طبقات الأطباء كمصدر عربي لتاريخ الهند" ، وأخيرا ألقى رئيس الجلسة كلمته الرئاسية وهنأ فيها القائمين على هذه الندوة حول مثل هذا الموضوع .

وأقيمت جلسة خاصة بالطلبة الباحثين مع الجلسة الرابعة في غرفة قريبة من قاعة المحاضرات ، ترأسها الدكتور نسيم أختر الندوي الأستاذ المشارك في قسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة الملية الإسلامية ، وأدارها الدكتور سعيد بن مخاشن ، وقدّمت فيها خمس مقالات . أمّا الأولى فألقاها غياث الإسلام الصديقي الندوي حول "الهند في العهد الإسلامي: مصدر هام لتاريخ الهند" ، وألقى ثانيتها الباحث كاشف جمال حول "الجوانب التاريخية في كتاب أبجد العلوم" ، وألقى ثالثتها الباحث محمد ريحان خان الندوي حول "لمحات عن مؤرخ الهند عبد الحي الحسني ومؤلفاته التاريخية بالعربية" ، وألقى رابعتها الباحث حافظ محمد غياث الدين حول "المسلمون في الهند من الفتح العربي إلى الاستعمار البريطاني" مصدر هام لتاريخ الهند ، وألقى خامستها الباحث عظمت الله الندوي حول "كتاب "دور المسلمين في تحرير الهند: مصدر هام لتاريخ الهند الحديث" . وفي الأخير ألقى رئيس الجلسة كلمته الرئاسية وشجّع فيها المساهمين بالإضافة إلى إيضاح الفرق بين المصدر والمرجع ، وأهمية المقالة العلمية وملامحها .

استغرقت الندوة الوطنية يومين(٤- ٥ مارس) ، وألقيت فيها حوالي ثلاثين مقالة علمية قيمة تتعلق بالموضوع ، وشهدها كثير من الأساتذة والطلبة والطالبات من الأقسام المختلفة بجامعة دلهي وفي مقدمتهم البروفيسور إيس . إي . آر . كيلاني ، والبروفيسور مجيب الرحمن ، والبروفيسور عبد الحق ، والبروفيسور ابن كنول رئيس قسم اللغة الأردية بجامعة دلهي ، والبروفيسور شبيه الحسن ، والبروفيسور ارتضى كريم ، والبروفيسور توقير أحمد ، والدكتور محمد قاسم عادل الندوي رئيس قسم اللغة العربية وآدابها في كلية ذاكر حسين التابعة لجامعة دلهي ، والدكتورعلي جاويد ، والدكتور شميم، والدكتور مشتاق أحمد القادري . كما شارك فيها عدد كبير من الأساتذة والباحثين من مختلف الجامعات والمعاهد الهندية الحكومية التي تعتني بتعليم اللغة العربية وآدابها .

وصلت الندوة إلى نهاية المطاف بعد ما نوّه منسّق الندوة الأستاذ الدكتور سيد حسنين أختر بجهود الأساتذة والطلبة في إنجاح هذه الندوة وقام الأستاذ أصغر محمود الندوي بإدلاء كلمة الشكر لجميع الضيوف والمساهمين والحضور .

إلى رحمة الله تعالى :

الدكتور عدنان علي رضا النحوي في ذمة الله تعالى

نعت الأنباء الواردة من المملكة العربية السعودية الدكتور عدنان علي رضا النحوي يوم الأحد في ١١/ من شهر يناير ٢٠١٥ م الموافق ٢٠/ من شهر ربيع الأول لعام ١٤٣٦ هـ ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

كان الدكتور عدنان النحوي من كبار أدباء وشعراء العصر الحاضر مقيماً في الرياض ، ومن السابقين الأولين إلى الانضمام في الكوكبة العلمية الأدبية التي أنشأتها رابطة الأدب الإسلامي العالمية بتوجيهات واقعية لسماحة العلامة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي (يرحمه الله تعالى) ورئاسته لها التي دامت إلى آخر يوم من حياته ، ثم خلفه سعادة الأديب البارع الأستاذ عبدالقدوس أبو صالح في رئاسة الرابطة للدول الإسلامية ، وآلت رئاستها في القارة الهندية ودول جنوب شرق آسيا إلى خلف العلامة الإمام الندوي سعادة العلامة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي ، رئيس ندوة العلماء العام .

وكلما عقدت ندوة علمية لرابطة الأدب الإسلامي العالمية في دارالعلوم لندوة العلماء وفي المراكز العلمية الأخرى في الهند كان الراحل الكريم من السابقين الحاضرين فيها ، ببحوثه ومؤلفاته الأدبية ، كانت صلته بسماحة العلامة الإمام الندوي رحمه الله مخلصة وطيدة ، وكان يحب الندويين وتلاميذ العلامة الندوي وعلى رأسهم سعادة العلامة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي ، وظل قائماً بمسئوليته الأدبية بالكتابة وتأليف الكتب الأدبية والدعوية والفكرية إلى آخر حياته ، رحمه الله تعالى .

ذهب الدكتور عدنان النحوي وخلف وراءه تراثاً ضخماً من التاريخ والشعر والأدب والنقد ، مع اشتغاله بالتدريس والإدارة ومنصب الاستشارة وحتى منصب المستشار الفني في الحرس الوطني لحكومة المملكة العربية السعودية ، كانت حياته مثالاً للعاملين في مجال العلم والدعوة ، والحاملين للقلم والفكر ، غادر إلى الدار الآخرة بالغاً من العمر سبعة وثمانين عاماً وجامعاً بين حسنة الدنيا وحسنة الآخرة .

تغمده الله تعالى بواسع رحمته وغفرله زلاته ، وأسكنه فسيح جناته، وأغدق عليه نعمه في الآخرة ، وألهم أهله وذويه ومحبيه الصبر الجميل ، والله يحب المحسنين .